مرجع ضمير الغائب فى لغة القرآن الكريم

دكتور
وجيه عبد العزيز زياده
أستاذ اللغويات المساعد
بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر - إيتاى البارود

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبة أجمعين وبعد :

فإن للضمائر فى اللغة وظيفة خاصة ، من أجلها وجدت فى الاستعمال اللغوى ، ولأهميتها وخطرها تعين بقاء الضمائر ودوام استعمالها فى اللغة .

وقد عنى بها اللغويون والنحاة ، فقاموا بتسجيل استعمالاتها ،واشتغلوا بالبحث فى طبيعتها ودلالتها ، وسجلوا فى ذلك نتائج على جانب كبيرمن الأهمية .

ولما كانت الضمائر تتنوع تنوعا كبيرا ، حيث تكون للمتكلم والمخاطب والغائب ، وتكون مفردة ومثناة ومجموعة ، كما تكون متصلة ومنفصلة وبارزة ومستترة ، لما كان الأمر كذلك كان الكلام حولها بصفة عامة يحتاج إلى وقت وجهد كبيرين ، لذا آثرت أن أتناول جزئية تتعلق بأحكام الضمائر وهى " مرجع ضمير الغائب " حيث إن كلا من ضميرى المتكلم والمخاطب تفسرهما المشاهدة والحضور ، ويبقى ضمير الغائب فى حاجة إلى ما يفسره ، وقد تكلم عن ذلك النحاة منذ القدم ، فأشاروا إلى ما يجب أن يتوافر فى مرجع الضمير من تقدم لفظى أو معنوى أو حكمى وأن ذلك المفسر يجب أن يكون الاقرب إلا إذا قامت قرينة تدل على عود الضمير على غير الاقرب .

كما تحدثوا عن حكم عود الضمير على المضاف الذى هو أحد جزأى الإسناد ، وأن الضمير قد يعود على المعنى حينا وعلى اللفظ حينا آخر ، وإلى غير ذلك من أحكام مبثوثة فى تضاعيف كتب النحو وبعد أن سجلت – بإختصار – ما كتبه النحاة فى هذا الصدد ، قمت بتطبيق تلك الأحكام على ما تيسر لى من آى الذكر الحكيم مستعينا بما كتب فى ذلك فى ثنايا كتب التفسير والإعراب قديمها وحديثها على السواء .

وعلى الله قصد السبيل .

الدكتور وجيه عبد العزيز يوسف زيادة

تمهيد فى :-

تعريف الضمير

تدور مادة " ضمر " فى اللغة حول الهزال والضعف والخفاء ، ومنه جمل ضامر وناقة ضامر ، والمضمر من الرجال : الضامر البطن ، والضمير : السر وداخل الخاطر ، والجمع ضمائر ، وأضمرته الأرض : غيبته إما بموت أو سفر ، والضمار من المال : الذى لا يرجى رجوعه .[1] أما عند النحاة فهو مادل على متكلم أو مخاطب أو غائب ، وهو والمضمر بمعنى واحد على حد قولهم :" عقدت العسل فهو عقيد " أى معقود ، وهذا اصطلاح بصرى ، والكوفيون يسمونه كتابة ومكنيا ، لأنه ليس باسم صريح ، والكناية تقابل الصريح ، قال ابن هانى :

"فصرح بمن تهوى ودعنى من الكنى فلا خير فى اللذات من دونها ستر"[2]

والحق أن المضمرات نوع من الكنايات ، فكل مضمر مكنى ، وليس كل مكنى مضمرا ، فالكناية : إقامة اسم مقام اسم تورية وإيجازا ، وقد يكون ذلك بالأسماء الظاهرة نحو : " فلان " كناية عن أعلام الأناسى و " الفلان " كناية عن أعلام البهائم و " كيت وكيت " كناية عن الحديث المدمج و " كذا كذا " كناية عن العدد المبهم ، وإذا كانت الكناية تكون بالأسماء الظاهرة كما تكون بالمضمرة ، كانت المضمرات نوعا من الكنايات [3] هذا ، وفائدة الضمائر أمران نص عليهما النحاة هما : الإيجاز ، وعدم الإلباس .

---

(1) اللسان : " ضمير "
(2) التصريح : ٩٥١١
(3) شرح المفصل لابن يعيش : ٨٤/٣

أما الإيجاز فظاهر ، لأنك تستغنى بالحرف الواحد عن الاسم بكماله : فيكون ذلك الحرف كالجزء من الاسم . وأما الإلباس فلأن الأسماء الظاهرة كثيرة الاشتراك ، فإذا قلت : " زيد فعل زيد " جاز أن يتوهم فى " زيد " الثانى أنه غير الأول ، وليس للأسماء الظاهرة أحوال تفترق بها إذا التبست ، وإنما يزيل الالتباس منها فى كثير من الأحوال الصفات كقولك : " مررت بزيد الطويل " والمضمرات لألبس فيها فاستغنت عن الصفات .[1]

وإذا كانت أحكام الضمائر كثيرة ومتعددة ، فإن الذى يعنينا فى هذا المقام هو معرفة ما يتعلق بـــ " مرجع ضمير الغيبة " فإن كلا من ضميرى المتكلم والمخاطب يفسرهما الحضور والمشاهدة ، وأما ضمير الغائب فهو الذى يحتاج إلى ما يفسره .

---

[1] السابق وشرح الكافية للرضى : ٣/٢

مرجع الضمير

يحتاج ضمير الغائب إلى ما يفسره ، وأصل هذا المفسر أن يكون مقدما ليعلم المعنى بالضمير عند ذكره بعد مفسره [1] . وهذا التقدم إما لفظى وإما معنوى وإما حكمى .

١- التقدم اللفظى :

أما التقدم اللفظى فهو أن يذكر المفسر قبل الضمير ذكرا صريحا ، سواء كان من حيث المعنى أيضا متقدما نحو : " ضرب زيد غلامه " لأن الفاعل من حيث المعنى مقدم على المفعول ، أو كان من حيث المعنى متأخرا كقوله تعالى :(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)[2] لأن المفعول من حيث المعنى متأخر عن الفاعل .[3]

فإذا تقدم اسمان أو أكثر مستويان فى الإسناد كان الضمير عائدا على الاقرب ، إلا إن دل دليل على أنه لغير الأقرب ، مثاله :" جاءنى زيد وعمرو أكرمته " فالضمير لعمرو ، و :" اشتريت جوادا وغلاما فركبته " فالضمير للجواد "، وهو غير الاقرب لوجود الدليل ، ومنه قوله تعالى :

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) [4] .

---

[1] اطمع : ١ / ٦٥
[2] البقرة : ١٢٤
[3] الرضى على الكافية : ٤/٢
[4] العنكبوت : ٢٧

فضمير " ذريته " عائد على إبراهيم وهو غير الاقرب ، لأنه المحدث عنه من أول القصة إلى آخرها [1]

فإن لم يستويا فى الإسناد ، وكان الثانى فى ضمن الأول ، عاد على المتقدم خلافا لإبن حزم فى زعمه أن الضمير فى قوله تعالى : " (قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[2] عائد على الخنزير لا على اللحم ، لكونه أقرب مذكور .[3]

٢- التقدم المعنوى :

أما التقدم المعنوى فهو أن لا يكون المفسر مصرحا بتقديمه ، بل هناك شئ آخر غير ذلك الضمير يقتضى كون المفسر قبل موضع الضمير ويشمل ذلك ما يلى :

١- معنى الفاعلية المقتضى كون الفاعل قبل المفعول رتبة نحو : " ضرب غلامه زيد " بتقديم المفعول وتأخير الفاعل .

٢- معنى الابتداء المقتضى لكون المبتدأ قبل الخبر نحو " فى داره زيد "

٣- معنى المفعول الأول المقتضى تقدمه على الثانى نحو :" أعطيت دراهمه زيدا " وكذا نحو :" ضربت فى داره زيدا "

٤- لفظ الفعل المتضمن للمصدر المفسر لضمير متصل بذلك الفعل نحو :

" هذا سراقة للقرآن يدرسه ** والمرء عند الرشا إن يلقها ذيب " [4]

---

(١) الهمع : ١ / ٦٥

(٢) الأنعام : ١٤٥

(٣) االارتشاف : ٤٨٠/١

(٤) الكتاب : ٣ / ٦٧ ، ابن الشجرى : ٣٣٩١١

فالضمير فى " يدرسه " راجع إلى مضمون يدرس ، أى يدرس الدرس ، فيكون راجعا للمصدر المدلول عليه بالفعل ، وإنما لم يجز عوده للقرآن لئلا يلزم تعدى العامل إلى الضمير وظاهره معا [1]

٥- الفعل المتضمن للمصدر المفسر لضمير منفصل عنه نحو قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)[2] فالضمير " هو " عائد على المصدر المفهوم مكن الفعل " اعدلوا " والمصدر أحد مدلولى الفعل : الحدث والزمان .

٦- لفظ الصفة المتضمنة للمصدر نحو قول الشاعر :

إذا زجر السفيه جرى إليه وخالف والسفيه إلى خلاف [3]

فالضمير فى " إليه " راجع على المصدر المدلول عليه بالوصف ، أى إلى السفه .[4] وهذا البيت أورده الفراء فى تفسيره عند قوله تعالى : " (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)[5]

---

(١) الخزانة : ٣/٢

(٢) المائدة : ٨

(٣) مجالس ثعلب : ٧٥ والخصائص : ٣ / ٤٩ ، والمحتسب : ١٧٠/١ ،وابن الشجرى ١ / ٦٨ ، ١١٣ ، ٣٠٥ / ٢ / ١٣٢ ، ٢٠٩ الإنصاف ١٤٠ والهمع ١ / ٦٥

(٤) الخزانة : ٥ / ٢٢٦

(٥) البقرة : ١٧٧

فى توجيه صحة الخبر عن المبتدأ فيه ، حيث قال : (إن من كلام العرب قولهم : إنما البر الصادق الذى يصل رحمه ويخفى صدقته ، فيجعل الإسم خبرا للفاعل ، والفعل خبرا للاسم ، لأنه أمر معروف المعنى ، فأما الذى جعل خبرا للاسم فقوله تعالى :(وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)[1] فهو كناية عن البخل . فهذا لمن جعل (الذين) فى موضع نصب وقرأها (تحسبن) بالتاء، ومن قرأها بالياء جعل (الذين) فى موضع رفع،وجعل عمادا للبخل المضمر ، فالكتفى بما ظهر فى (يبخلون) من ذكر البخل ، ومثله فى الكلام :

هم الملوك وأبناء الملوك لهم والآخذون به والساسة الأول [2]

وقوله " به " يريد : بالملك . وقال الآخر .إذا نهى السفيه جرى إليه البيت يريد إلى السفه) [3]

كما أورده ابن جنى فى (إعراب الحماسة) عند قوله :

ولم أر قوما مثلنا خير قومهم اقل به منا على قومهم فخرا [4]

حيث إن الضمير فى " به " يعود على الخير المفهوم من قوله " خير قومهم " وليس الثانى هو الأول ، لأن الأول صفة ، والثانى المقدر مصدر كقولك : أنا أوثر الخير وأكره الشر ، فدلت الصفة على المصدر كما ذكره الشجرى فى معرض حديثه عن قول الشاعر:

---

(1) آل عمران : ١٨٠ ، وقرأ بالتاء حمزة ، وسائر السبعة بالياء . البحر المحيط ٣ / ١٢٨ ، والاتحاف : ١٨٢

(2) البيت للقطامى وانظر أمالى الشجرى : ١ / ٣٠٥

(3) الخزانة : ٢٢٦/٥ ، ٢٢٧ وانظر معانى القرآن للفراء : ٢٤٨/١ ، ٢٤٩

(4) الخزانة : ٣٦٤/٤

ومن بك باديا ويكن أخاه ابا الضحاك ينتسج الشمالا [1]

قال : (الهاء فى قوله (أخاه) عائدة إلى البدو الذى هو ضد الحضر يقال : بدا فلان يبدو بدوا إذا حل فى البدو ، دل على عود الهاء إلى البدو قوله باديا .... ومثله قوله تعالى :(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)[2] أى يرضى الشكر . وكذلك قوله تعالى :(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) [3] اى فزادهم قول الناس ايمانا) .

٧- سياق الكلام المستلزم للمفسر استلزاما قريبا كقوله تعالى :(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)[4] لأن سياق ذكر الميراث دال على المورث ، دلالة التزامية .

---

(1) أمالى الشجرى : ١ / ٣٠٥ - وقوله : ابا الضحاك منصوب على النداء والشمال : وعاء يحفظ به ضرع الشاه . والمعنى : ومن يك باديا ويكن أخا البدو يفعل فعلهم

(2) الزمر : ٧

(3) آل عمران : ١٧٣

(4) النساء : ١١

٨- سياق الكلام المستلزم للمفسر استلزاما بعيدا نحو قوله تعالى :(فقالَ إنِّي أحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالحِجَابِ)[١] إذ العشى يدل على توارى الشمس ، وكقوله تعالى :(إنَّا أنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ)[٢] إذ النزول فى ليلة القدر التى هى فى شهر رمضان ، دليل على أن المنزل القرآن ، وكذا قوله سبحانه :(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً)[٣] فإن ذكر الدابة مع ذكر (على ظهرها) دال على أن المراد ظهر الأرض ، وكذا الفناء مع لفظة " على " فى قوله تعالى : (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) [٤]

٩- حضور حسا نحو قوله تعالى(قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)[٥] وقوله سبحانه(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)[٦] إذ لم يتقدم التصريح بلفظ زليخا وموسى ، لكونهما كانا حاضرين ، ورد ذلك أبو حيان بأن هذا مما صرح بلفظه ، ومثل هو له بقوله : أن يخطر بذهنك أن مخاطبك سألك عن حالة شخص فتقول هو مسافر .[٧] وليس بشئ ، فليس فى هذا التمثيل أى معنى للحضور الحسى والمثالان الأولان أقرب إلى ذلك المعنى .

---

(١) ص : ٣٢
(٢) القدر : ١
(٣) فاطر : ٤٥
(٤) الرحمن : ٢٦
(٥) يوسف : ٢٦
(٦) القصص : ٢٦
(٧) الارتشاف : ١ / ٤٨١

كما أنه يجوز أن يكون ذلك من قبل استعمال الضمير بدل اسم الاشارة فقد جاء عكس ذلك فى قوله تعالى(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)[1]

فقد أفرد الضمير فى " به " إجراء له مجرى اسم الإشارة ، كأنه قيل : إلا كتب لهم بذلك – كما ذكر أبو حيان نفسه .[2]

١٠- ذكر جزء المفسر أو كله ، مثال الأول قوله تعالى(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)[3] أى المكنوزات التى بعضها الذهب والفضة

ومثال الثانى قوله :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر[4]

أى النفس التى هى بعض " الفتى " وجعل منه قوله :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)[5]

---

(١) التوبة : ١٢٠

(٢) البحر المحيط : ١١٣/٥

(٣) التوبة : ٣٤

(٤) البيت لحاتم الطائى أمالى الزجاجى : ٩٢ ، وابن الشجرى : ٢٥٥٩/١ ، ٣٣٩/٢، والهمع : ٦٥١١

(٥) المائدة : ٨

أى العدل الذى هو جزء مدلول الفعل الذى يدل على الحدث والزمان [1]

١١- ذكر نظير المفسر نحو قولك : " عندى درهم ونصفه " أى ونصف درهم آخر ، ومنه قول الشاعر :

قالت ألا ليتما هنا الحمام أنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد [2]

أى : ونصف حمام آخر مثله فى العدد .

١٢- ذكر مصاحب المفسر بوجه نحو(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلى الحُرُّ بِالحُرِّ وَالعَبْدُ بِالعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[3] فضمير " إليه " عائد إلى العافى الذى استلزمه " عفى "

٣- التقدم الحكمى :

أما التقدم الحكمى فمرادهم به : أن يكون المفسر متأخرا لفظا ، وليس هناك ما يقتضى تقدمه على محل الضمير إلا ذلك الضمير [4] فهو وإن لم يكن متقدما على الضمير لا لفظا ولا معنى ، إلا أنه فى حكم المتقدم نظرا إلى وضع ضمير الغائب ، وإنما يقتضى الغائب تقدم المفسر عليه ، لأنه وضعه الواضع معرفة لا بنفسه بل بسبب ما يعود عليه ، فإن ذكرته ولم يتقدمه مفسر ، بقى مبهما منكرا لا يعرف المراد به حتى يأتى تفسيره بعده ، وتنكيره خلاف وضعه .

---

[1] الهمع : ١ / ٦٥

[2] البيت للنابغة ، ديوانه : ٢٤ ، والكتاب : ٢ / ١٣٧

[3] البقرة : ١٧٨

[4] الرضى على العافية : ٢/٥

والباعث على ذلك إنما هو قصد التفخيم والتعظيم فى ذكر ذلك المفسر ، بأن يذكروا أولا شيئا مبهما حتى تتشوق نفس السامع إلى العثور على المراد به ثم يفسروه ، فيكون أوقع فى النفس ، وأيضا يكون ذلك المفسر مذكورا مرتين ، بالإجمال أولا ، والتفصيل ثانيا ، فيكون أكثر توكيدا.

هذا ، وقد حصر النحاة هذا النوع من الضمائر فيما أسموه :

المواضع التى يعود فيها الضمير على متأخر لفظا ورتبة .

١- أن يكون الضمير مرفوعا بنعم أو بئس وما جرى مجراهما ، ولا يفسر إلا بالتمييز نحو : " نعم رحلا زيد ، وبئس رجلا عمرو " ويلتحق بهما فعل - بضم العين - الذى يراد به المدح والذم نحو(سَاءَ مَثَلا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ)[1] ،(مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)[2] ويرى الكسائى والفراء أن المخصوص هو الفاعل ويرده : " بئس للظالمين بدلا " [3] حيث حذف المخصوص ، والفاعل لا يحذف ، كما يرده قولهم : " نعم رجلا كان زيد " ولا يدخل الناسخ على الفاعل [4]

٢- أن يكون مرفوعا بأول المتنازعين المحمل ثانيهما نحو قوله : [5]

جفونى ولم أجف الأخلاء إننى لغير جميل من خليلى مهمل

---

[1] الأعراف : ١٧٧

[2] الكهف

[3] الكهف : ٥٠

[4] المغنى : ٤٨٩

[5] التصريح : ٣٢٠/١ ، والأشمونى : ٦٠/٢ ، ١٠٤

فقد أعمل ثانى المتنازعين ، وأعمل الأول فى ضمير المعمول ، ومذهب البصريين إضمار معمول للعامل الأول لامتناع حذف العمدة ، ولأن الإضمار قبل الذكر قد جاء فى غير هذا الباب ، كما جاء فيه فى نحو : " ضربونى وضربت قومك " والكسائى وهشام والسهيلى يوجبون الحذف تمسكا بظاهر قوله :

تعفق بالأرطى لها وأرادها رجال فبذت نبلم وكليب [1]

حيث لم يقل : " تعفقوا " ولا " أرادوا "

وذهب الفراء إلى أنه إذا استوى العاملان فى طلب المرفوع فالعمل لهما ، نحو : " قام وقعد أخواك " وإن اختلفا أضمرته مؤخرا نحو : " ضربنى وضربت زيدا هو " [2]

٣- أن يكون مخبرا عنه فيفسره خبره نحو :(وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)[3] قال الزمخشرى : هذا ضمير لا يعلم ما يعنى به إلا بما يتلوه ، وأصله إن الحياة إلا حياتنا الدنيا ، ثم وضع " هى " موضع الحياة ، لأن الخبر يدل عليها ويبينها ، ومنه : " هى العرب تقول ما شاءت " قال ابن مالك : وهذا من جيد كلامه ، إلا أنه جوز أن يكون " العرب " بدلا ، و" تقول ما شاءت " خبرا ، وجوز ابن هشام وجها ثالثا وهو كون " هى " ضمير القصة ، وما بعده مبتدأ وخبر . [4]

---

(١) البيت لعلقمة بن عبدة ، وتعفق : استتر . الأرطى شجر بذت : غلبت كليب : جمع كلب . انظر أوضح المسالك : ١٧٧١٢

(٢) المرجع السابق

(٣) الأنعام : ٢٩

(٤) المغنى : ٤٨٩ ، ٤٩٠

٤- ضمير الشأن والقصة نحو :(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)[١] ونحو :(وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ)[٢] ويسميه الكوفيون ضمير المجهول ، والجملة بعده مفسرة ولكنها لم تأت كالتمييز لمجرد التفسير ، وهو ملازم للإفراد فلا يثنى ولا يجمع وإن فسر بحديثين أو أحاديث ، ويؤنث إذا كان فى الكلام مؤنث عمدة ... [٣]

قال أبو حيان : " وهو ضمير غائب يأتى صدر الجملة الخبرية دالا على قصد المتكلم استعظام السامع حديثه ، وسمته البصريون ضمير الشأن والحديث إذا كان مذكرا ، وضمير القصة إذا كان مؤنثا ، قدروا من معنى الجملة اسما جعلوا ذلك الضمير يفسره ذلك الاسم المقدر حتى يصبح الاخبار بتلك الجملة عن الضمير ، ولا يحتاج فيها إلى رابط به ، لأنها نفس المبتدأ فى المعنى ، والفرق بينه وبين الضمائر أنه لا يعطف عليه ولا يؤكد ولا يبدل منه ولا يتقدم خبره عليه ولا يفسر بمفرد " . [٤]

وجعله ابن هشام مخالفا للقياس من خمسة أوجه :

أحدها : عوده على ما بعده لزوما ...

والثانى : أن مفسره لا يكون إلا جملة ، ولا يشاركه فى هذا ضمير خلافا للكوميين والأخفش .

والثالث : أنه لا يتبع بتابع - كما سبق .

---

[١] الاخلاص : ١
[٢] الأنبياء : ٩٧
[٣] ضمير الشأن والقصة فى لغة القرآن : ١٩
[٤] الهمع : ١ / ٦٧

والرابع : أنه لا يعمل فيه إلا الابتداء أو أحد نواسخه .

والخامس : أنه ملازم للإفراد . [1]

٥- أن يجر بـــ " رب " مفسرا بتمييز ، وحكمه حكم ضمير " نعم وبئس " فى وجوب كون مفسره تمييزا ، وكونه هو مفردا نحو :

ربـــه فتية دعوت إلى ما يورث المجد دائبا فأجابوا [2]

ولكنه يلزم أيضا التذكير فيقال : " ربه امرأة " لا ربها ، ويقال : " نعمت امرأة هند " وأجاز الكوفيون مطابقته للتمييز فى التأنيث والتثنية والجمع ، وليس بمسموع .

٦- أن يكون مبدلا منه الظاهر المفسر له نحو : " ضربته زيدا " ، قال ابن عصفور : أجازه الأخفش ومنعه سيبويه ، وقال ابن كيسان : هو جائز باجماع ، ومما خرجوا على ذلك قولهم : " اللهم صلى عليه الرؤوف الرحيم " وجعله الكسائى نعتا ، والجمهور على أن الضمير لا ينعت ولا ينعت به ، ومنه قوله :

قد أصبحت بقرقرى كوانسا فلا تلمه أن ينام البائسا [3]

٧- أن يكون متصلا بفاعل مقدم ، ومفسره مفعول مؤخر نحو : " ضرب غلامه زيدا " ، أجازه الأخفشى وأبو الفتح ، وأبو عبد الله الطوال من الكوفيين ، ومن شواهده قول حسان :

---

(١) المغنى : ٤٩٠ ، ٤٩١ باختصار .

(٢) المرجع السابق

(٣) السابق : ٤٩٢ ، وهو من شواهد الكتاب : ٧٥/٢ ، قرقرى : موضع باليمامة كوانسا : دخلت الكناس وهو فى الأصل بيت الظبى وبقر الوحش استعير للإبل

ولو أن مجدا أخلد الدهر واحدا من الناس أبقى مجده الدهر مطعما [1]

وقوله

كساحلمه ذا الحلم أثواب سؤدد ورق نداه ذا الندى فى ذرى المجد[2]

والجمهور يوجبون فى ذلك فى النثر تقديم المفعول ، نحو :(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)[3]

ويمتنع بالاجماع : نحو " صاحبها فى الدار " لاتصال الضمير بغير الفاعل ، ونحو : " ضرب غلامها عبد هند " لتفسيره بغير المفعول ، والواجب فيهما تقديم الخبر والمفعول .

ومما تجدر الاشارة إليه أن أحد الباحثين حاول جاهدا تفنيد هذه المواضع ، فيقول معقبا عل الموضع الأول : وأرجح فى هذا عدم وجود ضمير مستتر مع الفعل ، ويحسن فى هذا التركيب " نعم رجلا زيد " أن يكون الظاهر هو الفاعل وهو رأى الفراء والكسائى " .[4]

كما يقول معقبا على الموضع الثانى الخاص بالمرفوع بأول المتنازعين " والكوفيون يمنعون من ذلك وأنا أوافقتهم فى رأيهم " [5] ويعقب على الموضع الثالث بقوله : " وفى رأيى أن هذا الاستعمال يفهم من سياق الكلام .. " وهذه عبارة أبى حيان : " وهو عند أصحابنا مما يفسره سياق الكلام " .[6]

---

(1) ينظر أوضح المسالك : ١١٢١٢ ومعه عده السالك إلى تحقيق أوضح المسالك ، والمغنى : ٤٩٢

(2) المراجع السابقة

(3) البقرة : ١٢٤

(4) الضمائر فى اللغة العربية محمد عبد الله جبر : ١٠٢

(5) السابق : ١٠١

(6) السابق : ١٠٢ ، والارتشاف : ٤٨١/١

كما يعقب على الموضع الخاص بضمير الشأن والقصة بأنه خال من مدلـــول الضمير وانه إلى مفهوم الحرف والإشارة أقرب . وهذا راى مردود لابن الطراوة . كما ذكر السيوطى بل انه قال : " ولا خلاف فى أنه اسم يحكم عـــلى موضـــعه بالإعراب على حسب العامل " [1] وكذا يعقب على الموضع الخامس وهو الضمير الواقع بعد " رب " بقوله : " وأرى أن ما دخلت عليه " رب " ليس من الضمير فى شئ بل إن أمره كأمر ضمير الشأن ، فهو أقرب إلى الحرفية " .[2]

ثم يعقب على الموضوع بأكمله بقوله :" هذة المواضع الستة الأخيرة أوجبوا فيها تقدم الضمير على مرجعه ، وقد تبين أنها لا تحتاج إلى هذا الحكم ، فمعظم أساليبها غير مستعمل ، بل لا يكاد يتعدى الاستعمال عبارة الشاهد ، وفى بعضـــها لا تجـــد ضميرا بمدلول الضمير ومفهومة . " [3] ثم يقول : " والخلاصـــة فى هـــذا أن تقدم الضمير على مرجعه أسلوب يتجنبه الاستعمال الشـــائع ، وأن وضع المفسر قبل ضميره هو الشائع والمقبول ، وأن استعمالنا الحديث كاد يستقر على ذلك استقرارا تاما " . [4]

وقد بين المحقق الرضى الغرض من استعمال هذا النوع من الاساليب بقوـــله : " فـــإن قلت فايش الحامل لهم على مخالفة ومخالفة مقتضى وضعه بتأخير مفسره عنه ؟ قلت : قصد التفخيم والتعظيم فى ذكر ذلك المفسر ، بأن يذكـــروا أولا شيئـــا مبهمـــا حتـــى تتشـــوق نفـــس السامـــع إلـــى العثـــور

---

[1] السابق : ١٠٢ و الهمع : ١/ ٦٧
[2] الضمائر :١٠١
[3] السابق : ١٠٢
[4] السابق : ١٠٢ ، ١٠٣

عـــلى المراد به ، ثم يفسروه فيكون أوقع فى النفس،وأيضا يكون ذلك المفسر مذكورا مرتين . بالإجمال أولا ، والتفصيل ثانيا،فيكون آكد " [1]

كما ينبه إلى نقطة مهمة تتعلق بهذا النوع من الضمائر وهى حكم هذا الضـــمير من حيث التعريف والتنكير بإعتبار أنه فقد شرط التعريف وهوتقدم المفســـر ، ويجيب بأنه يبقى عند النحاة معرفة لكن تعريفه أنقص مما كان فى الأول ، لان التفسير يحصل بعد ذكره مبهما ، فقبل الوصول إلى التفسير فيه الإبهـــام الذى فى النكرات ، ولهذا اجاز دخول " رب " عليه مع اختصاصها بالـــنكرات ، وإنمـــا حكمـــوا ببقائه معرفا لأنه حصل له جبران ما فاته بذكر المفسر ، بعده بلا فصل ، فهو كالمضاف الذى يكتسب التعريف من المضاف إليـــه ، وهـــذا واضـــح فى نحو :" ربه رجلا ونعم رجلا " لأن الاسم المميز المنصوب لم يؤت به إلا لغرض التمييز .

فذلك قائم مقام المفسر المتقدم ، ومثله : " مررت به زيد " إذا لم يؤت بالـــبدل إلا للتفسير ، وكذلك الحال بالنسبة لضمير الشأن ، فإن قصد التفخيم بذكـــره مجملا ثم مفصلا مع اتصال الخبر المفسر بالمبتدأ ، سهل الإتيان به مبهما .

مرجع ضمير الغائب فى القرآن الكريم

ممـــا لا شـــك فيه أن القرآن الكريم أسلوبه معجز غاية الإعجاز فلا يستطيع أحد أن يحيط بكل مراميه ومقاصده فاحتمل كثيرا من المعانى وكثيرا من الوجوه .

---

[1] شرح الكافية : ٥/٢

ومـــن أوجـــه إعجازه اللغوى احتمال عود ضمير الغائب على أشياء متنوعة سبقته على نحو ما ذكرنا من مرجع ضمير الغائب فى لغتنا الفصحى ، ويتضح ذلك من خلال ما يلى :-

أولا : عوده على أقرب مذكور

اتفـــق النحاة على أن ضمير الغائب إذا سبق بأكثر من مرجع فالأولى عوده على أقرب مذكور ، إلا إذا كان هناك قرينة تشير إلى عوده على الأبعد فيؤخـــذ بهـــا - كمـــا سبقت الإشارة - وقد أشار إلى ذلك صاحب الإعراب المنســـوب إلى الـــزجاج فى أحـــد فصول كتابه بقوله " هذا باب ما جاء فى التنزيل من المضمرين إلى أى شئ يعود مما قبلهم "[1] وهذه بعض النماذج:

١. مـــن ذلك قوله تعالى:(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّـــنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[2] قيل : من مثل محمد - عليه السلام - فالهاء تعود على " عبدنا " وقيل : تعود إلى " مـــا " أى فـــأتوا بسورة مثله أى القرآن فتكون " من " زائدة على رأى الأخفـــش ، ويؤيـــده قوله تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[3]

وقيـــل الهـــاء تعـــود على الأنداد ، نظيره(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ) [4]

---

(١) إعراب القرآن : ٥٥٢
(٢) البقرة : ٢٣
(٣) يونس : ٣٨
(٤) النحل : ٦٦

ثم يقول : " والمعنى يقتضى الأوجه الثلاثة ، وقرب اللفظ يقتضى عوده إلى " عبدنا "[1]

ولكن سياق الكلام يقتضى خلاف ما يزعم ، حيث إن القرآن هو المحدث عنه من أول الكلام ، فيكون أولى برجوع الضمير إليه ، فالمعنى : فأتوا بسورة كائنة من مثل هذا الذى أنزل على عبدنا ، أى : وإن ارتبتم فى أن القرآن منزل من عند الله فأتوا بشئ من مثله .

كما أن أمرهم بالإتيان بمثل ما أتى به واحد من جنسهم أبلغ من أمرهم بأن يجدوا واحدا يأتى بمثل ما أتى به رجل آخر .

هذا إلى جانب أن الضمير لو رجع إلى العبد لأوهم أن إعجازه فى كونه أميا لا أنه فى نفسه معجز.[2]

٢. ومنه قوله تعالى :(وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ)[3] قيل : التقدير : أول كافر بالتوراة، وهو مقتضى قوله لما معكم " فيعود إلى " ما " وقيل : يعود إلى قوله " بما أنزلت " وهو القرآن .

ويجوز أن تعود الهاء إلى النبى - ﷺ - وذلك مذكور دلالة ، لأن قوله " وآمنوا بما أنزلت " أى : أنزلته على محمد عليه السلام ، أو للنعمة بمعنى الإحسان [4] والأول هو الراجح لأنه هو المقصود بالحديث.

---

(١) إعراب القرآن : ٥٥٢

(٢) ضمير الغائب ، على محمد النابى : ٤٣

(٣) البقرة : ٤١

(٤) الكشاف : ١ / ٦٥ ، والبحر المحيط : ١ / ١٧٨

٣. ومـــنه قولـــه سبحانه :(وَاستَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)[١]

قيل : الهاء تعود إلى"الصلاة"أى:إن الصلاة لكبيرة أى لثقيلة إلا على الخاشـــعين ، كقولـــه :(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ)[٢]

ويجـــوز أن تعود على المصدر ، لأن قوله : " واستعينوا " يدل على الاستعانة ، أى : إن الاستعانة لكبيرة إلا على الخاشعين ، كما قال : من كذب كان شرا له .[٣]

ورجـــح عوده على " الصلاة " لعظم شأنها ، واشتمالها على ضروب مـــن الصـــبر ، وقيـــل : أفرد الضمير وحقه التثنية ، لأن العرب ربما تذكر اسمين وتكنى عن أحدهما ، كما قال تعالى :(وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَـــا وَتَـــرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)[٤] وقوله(وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)[٥]

---

(١) البقرة : ٤٥
(٢) البقرة : ١٤٣
(٣) إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج : ٥٥٣
(٤) الجمعة : ١١١
(٥) النساء : ١١٢

وقيل : يعود إلى المذكورات المأمور بها والمنهى عنها ، ومشقتها عليهم ظاهرة ، وأبعد الأخفش حيث قال برجوعه إلى إجابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأبعد من ذلك من جعله عائدا إلى الكعبة المفهومة من ذكر الصلاة.(١)

٤. و قوله تعالى : (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)(٢)

الضمير فى " إليه " يعود على الرب ، وهو أقرب مذكور ، وقيل : يعود على اللقاء الذى يتضمنه " ملاقو ربهم " وقيل : يعود على الموت(٣)

والمعنى يحتمل الجميع والأول أقرب إلى القبول .

٥. وقوله تعالى :(وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ)"(٤)

قال الزمخشرى : " فإن قلت : الضمير فى " ولا يقبل منها " إلى أى النفسين يرجع ؟ قلت : إلى الثانية العاصية غير المجزى عنها ، وهى التى لا يؤخذ منها عدل ، ومعنى أنها لا يقبل منها شفاعة : إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها : ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى على أنها لوشفعت لها لم تقبل شفاعتها ، كما لا تجزى عنها شيئا ولو أعطت عدلا عنها لم يؤخذ منها "(٥)

---

(١) البحر المحيط : ١ / ١٨٥ ، الطبرى : ١ / ٢٠٦ ، والألوسى : ١ / ٢٤٩ ، مشكل مكى : ١/ ٤٤

(٢) البقرة : ٤٦

(٣) البحر : ١ / ١٨٧ ، والعكبرى : ١ / ١٩

(٤) البقرة : ٤٨

(٥) الكشاف : ١ / ٦٧ والبحر المحيط : ١ / ١٩٠

وقــد رجــح الأول بأنـــه عــود إلى أقرب مذكور ، ولأجل أن تتحد الضــمائر الــثلاثة : " لا يقبل منها " و " لا يؤخذ منها " و " لاهم ينصرون " لأن الأخيــر يعــود كذلك إلى ما دلت عليه النفس المنكرة من النفوس الكثيرة والتذكير بمعنى العباد أو الأناسى .

٦- وقوله تعالى :(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالــزَّرْعَ مُخْتَــلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَــرِهِ إِذَا أَثْمَــرَ وَآتُــوا حَقَّــهُ يَــوْمَ حَصَــادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيــنَ)[١]

الضمير فى " أكله " يعود إلى " الزرع " لأنه أقرب مذكور ، وحذف حــال " النخل " للدلالة ، ويحتمل أن تكون الحال مختصة بالزرع لأن أنواعه مختلفة . وذهب الزمخشرى إلى أن الضمير للنخل ، والزرع داخل فى حكمه ، لكونه معطوفا عليه .[٢]

٧- وقولــه تعالى:(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ)[٣]

قــال ابو حيان : " الظاهر أن الضمير فى " قومه " يعود إلى موسى لأنــه هو المحدث عنه ، وهو أقرب مذكور ، ولو كان عائدا على " فرعون " لم يظهر لفظ فرعون ، وقيل : يعود إلى فرعون " [٤]

---

[١] الأنعام : ١٤١
[٢] الكشاف : ٤٤/٢ ، والبحر : ٢٣٦/٤
[٣] يونس : ٨٣
[٤] البحر : ٥ / ١٨٤

أما الضمير فى " ملئهم " فيعود إلى فرعون بمعنى أل فرعون ، كما يقال :

ربيعة ومضر ، أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له ، ويجوز أن يرجع إلى الذ رية ، أى : على خوف من فرعون وخوف من أشراف بنى إسرائيل ، لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم ، وعلى أنفسهم ، ويدل عليه قوله : " أن يفتنهم " ، يريد أن يعذبهم وإفراده للضمير للدلالة على أن الخوف من الملأ كان بسببه ، وجمع الضمير في " ملئهم " لخمسة أوجه :-

أ- أنه إذا ذكر علم أن معه غيره فعاد الضمير إليه وإلى من معه .

ب- أنه إخبار عن جبار فعبر عنه بلفظ الجمع .

جـ- أن فى الكلام حذف مضاف وتقديره : على خوف من آل فرعون .

د- أن جمع الضمير يعود على الذرية التى تقدم ذكرها .

هـ- أنه يعود على القوم الذين تقدم ذكرهم .[1]

٨-وقوله تعالى:(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)[2]

" هى " تعود على الحجارة ، وهى أقرب مذكور -كما يقول أبو حيان ويجوز أن يعود إلى القرى المهلكة ، أو العقوبة المفهومة من السياق [3]

---

[1] روح المعانى : ١١ / ١٦٩ .
[2] هود : ٨٢ ، ٨٣ .
[3] البحر : ٥ / ٢٥٠ ، والعكبرى : ٢ / ٢٣ .

وإنمـــا قال " ببعيد " أى : بشئ بعيد ، ويجوز أن يراد وما هى بمكان بعيد ، لأنها وإن كانت فى السماء ، وهى مكان بعيد ، إلا أنها إذا هوت منها ، فهى أسرع شئ لحوقا بالمرمى ، فكأنها بمكان قريب منه .[1]

٩- وقوله تعالى : (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِـــي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَـــذَا لِيَكُـــونَ الرَّسُـــولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّـــلاةَ وَآتُـــوا الـــزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)[2]

" هو " فيه وجهان :

أحدهما : أن المراد به الله تعالى .

والثانى : أن يراد به إبراهيم .[3]

ورجـــح الأول بأنـــه قرئ : " الله سماكم " وهى قراءة أبى بن كعب ورجـــح الثانى بأنه الأقرب ، وتسميتهم مسلمين فى القرآن وإن لم يكن منه ، كان بسبب تسميته من قبل فى قوله: "ومن ذريتنا أمة مسلمة لك "[4]

١٠-وقولـــه تعالـــى : (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرا)[5] .

الضـــمير فى " ليكون " راجع إلى" عبده " ، لأنه أقرب مذكور، ويجوز أن يكون عائدا إلى " الفرقان " ، لأنه المحدث عنه .

---

(١) الكشاف : ٢ / ٢٢٨ .
(٢) الحج : ٧٨ .
(٣) البيان : ٢ / ١٧٩ .
(٤) الكشاف : ٣ / ٤١ ، والبحر : ٦ / ٣٩١ .
(٥) الفرقان : ١ .

ثانيا : عوده على المحدث عنه :

كما يعود الضمير على أقرب مذكور - على نحو ما رأينا من نماذج - يعود - كذلك - على المحدث عنه ، وإن لم يكن الأقرب ، ومن ذلك :

١- قوله تعالى :(إذْ أوْحَيْنَا إلى أمّكَ مَا يُوحَىأن اقذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فاقذِفِيهِ فِي اليَمّ فلْيُلقِهِ اليَمُّ بالسَّاحِلِ يَأخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لهُ وَألقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ولِتُصنَعَ عَلى عَيْنِي)[1] قال أبو حيان : " الظاهر أن الضمير فى " اقذفيه " عائد على موسى ، وكذلك الضميران بعده ، إذ هو المحدث عنه ، لا التابوت ، وإنما ذكر التابوت على سبيل الوعاء والفضلة . ولقائل أن يقول : إن الضمير إذا كان صالحا أن يعود على الأقرب وعلى الأبعد ، كان عوده على الأقرب راجحا ، وقد نص النحويون على هذا فعوده على التابوت فى قوله : " فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم " راجح .

والجواب : أنه إذا كان أحدهما هو المحدث عنه ، والآخر فضلة ، كان عوده على المحدث عنه أرجح ، ولا يلتفت إلى القرب ، ولهذا رددنا على أبى محمد بن حزم فى دعواه أن الضمير فى قوله : " فإنه رجس " عائد على " خنزير " لا على " لحم " لكونه أقرب مذكور، فيحرم بذلك شحمه وغضروفه وعظمه وجلده - بأن المحدث عنه هو " لحم خنزير ،لا خنزير "[2]

---

[1] طه : ٣٨ ، ٣٩ .
[2] البحر المحيط : ٦ / ٢٤١ .

٢- قولـه تعالـى : (وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)[١]

الظاهـر عـود الهـاء فى " مـا فعـلوه " إلى القـتل ، لأنـه المصـرح بـه ، والمحدث عنه ، والواو عائد على المشركين ، وقيل : لجميع ذلك إن جعلت الضمير جاريا مجرى إسم إشارة .

وهذه الأيـة من الآيات التى طعن فيها على ابن عامر، وهو أحد القراء السبعة المشهورين ، حيث قرأ بضم الزاى وكسر الياء من " زين " ورفع لام " قتل " ونصـب دال " أولادهـم " وخفـض همـزة " شـركائهم "[٢] بالفصـل بيـن المضاف وهو " قتل " وفاعله المضاف إليه " شركائهم " بالمفعول " أولادهم " وهو مـا يجيزه الكوفيون فى الشـعر ، ويمنعه البصريون بغير الظرف[٣] . فهذا أبو جعفر النحاس يقول : " فأمـا ما حكاه أبو عبيد عن ابن عامر .... فلا يجوز فى كلا ولا شعر، وإنما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه فى الشعر بالظرف ، لأنه لا يفصل ، فأما بالأسماء غير الظروف فلحن "[٤] .

وهـذا أبـو البركات الأنبارى يقـول : " وأمـا نصـب (أولادهـم) وجـر (شركائهم) فهو ضـعيف فى القياس جدا ، وتقديره : زين قتل شركائهم أولادهم ، فقدم وأخر وفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول .... ومثل

---

[١] الأنعام : ١٣٧ .
[٢] النشر : ٢ / ٢٦٣ .
[٣] الرضى على الكافية : ١ / ٢٧٠ ، ٢٧١ .
[٤] إعراب القرآن للنحاس .

هذا لا يكون فى اختيار الكلام بالإجماع ..... وهذه القراءة ضعيفة فى القياس بالإجماع "[1] .

أما الزمخشرى فقد زاد فى هجومه على القراءة وصاحبها بقوله : " وأما قراءة ابن عامر ... فشئ لو كان فى مكان الضرورات ، وهو الشعر لكان سمجا مردودا ، كما سمج ورد :

(زج القلوص أبى مزاده)

فكيف به فى الكلام المنثور ، فكيف به فى القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته .. والذى حمله على ذلك أن رأى فى بعض المصاحف (شركائهم) مكتوبا بالياء . ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء ، لأن الأولاد شركاؤهم فى أموالهم لوجد فى هذا مندوحة عن هذا " الإرتكاب "[2] وقد قام أبو حيان[3] برد هذا الكلام بما يناسبه من تطاول على مثل هذه القراءة السبعية المتواترة ، وكذلك فعل بن الجزرى[4] . مبينا أن أول من قام برد القراءات المتواترة هو ابن جرير الطبرى ، حتى قال عنه الإمام أبو القاسم الشاطبى : إياك وطعن ابن جرير على ابن عامر.

كما أجاد بن المنير فى دفع كلام الزمخشرى ودحض حججه الواهية داعما كلامه بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة ، ثم ختمه بقوله : " وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية ، بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة وهذا القدر كاف إن شاء الله فى الجمع بينهما والله الموفق "[5]

---

(1) البيان : ١ / ٣٤٢ ، ٣٤٣ .
(2) الكشاف : ٢ / ٤٢ .
(3) البحر المحيط : ٤ / ٢٣٠ .
(4) النشر : ٢ / ٢٦٣ ، ٢٦٤ .
(5) الإنتصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال : ٢ / ٤١ .

٣- قوله تعالى : (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)[١] الظاهر عود الضمير في "فلا تستعجلوه " على الأمر ، لأنه هو المحدث عنه.

وقيل : يعود إلى "الله"،أي فلا تستعجلوا الله بالعذاب أو بيوم القيامة[٢] .

والخطاب للكفرة خاصة ، كما تدل عليه القراءة على صيغة نهي الغائب : " يستعجلوه " واستعجالهم ، وإن كان بطريق الإستهزاء ، لكنه حمل على الحقيقة ، ونهوا عنه بضرب من التهكم لا مع المؤمنين . سواء أريد بأمر الله ما ذكر ، أو العذاب الموعود[٣] .

٤- قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)[٤] .

الضمير في " ترونها " يعود على الزلزلة ، لأنها المحدث عنها . وقيل على الساعة[٥] .

يؤيد الأول قوله:"تذهل كل مرضعة"وعليه يكون الذهول والوضع حقيقة ، لأنه في الدنيا ، وعلى الثاني يكون على سبيل التعظيم والتهويل ، وأنها بهذه الحيثية ، إذ المراد بالساعة القيامة .

---

(١) النحل : ١

(٢) البحر المحيط : ٥ / ٤٧٢ ، والعكبري : ٢ / ٤١ .

(٣) إرشاد العقل السليم : ٥ / ٩٤ .

(٤) الحج : ١ ، ٢ .

(٥) البحر المحيط : ٦ / ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

وهو كقوله(فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا)[1] قال الفراء : " رفعت القراء (كل مرضعة) ، لأنهم جعلوا الفعل لها ، ولو قيل : تذهل كل مرضعة ، وانت تريد الساعة أنها تذهل أهلها كان وجها ، ولم أسمع أحدا قرأ به ..... "[2]

والذى لم يسمعه الفراء هو قراءة ابن أبى عبلة واليمانى[3] . وإنما قيل " مرضعة " ولم يقل " مرضع " وهو وصف خاص بالمؤنث لأن المرضعة هى التى فى حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبى ، والمرضع التى شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع فى حال وصفها به ، فقيل مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها ، نزعته عنه لما يلحقها من الدهشة[4] .

٥- قوله تعالى : (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)[5] .

الضمير فى " عليه " يعود إلى " من " ، لأنه المحدث عنه ، وفى " أنه تولاه ، فأنه " عائد عليه أيضا ، وفاعل " تولى " ضمير " من " وكذلك الهاء فى " يضله ".

ويجوز أن تكون الهاء فى " أنه " ضمير الشأن ، وقيل : الضمير فى " عليه " عائد على " كل شيطان "[6] .

---

[1] المزمل : ٧ وانظر الجمل على الجلالين : ٣ / ١٥١ .
[2] معانى القرآن : ٢ / ٢١٤ .
[3] البحر المحيط : ٦ / ٣٥٠ .
[4] الكشاف : ٣ / ٢٤ .
[5] الحج : ٤ .
[6] البحر المحيط : ٦ / ٣٥١ ، ومعانى القرآن للفراء : ٢ / ٢١٥ .

هذا ، و " من " فى الآية تحتمل أحد أمرين : أحدهما أن تكون بمعنى الذى و " تولاه " صلته ، وهو وصلته فى موضع رفع بالإبتداء ، وقوله " فأنه يضله " خبره ، ودخلت الفاء لأن الموصول يتضمن معنى الشرط والجزاء و " من " وصلته وخبره فى موضع رفع ، لأنه خبر " أن " الأولى.

والثانى : أن تكون " من " شرطية و "تولاه" فى موضع جزم بها ، وجواب "من" الشرطية قوله"فأنه يضله" ومن الشرطية وجوابها فى موضع رفع ، لأنه خبر " أن " الأولى .

وفتحت همزة " فأنه " لأنها فى موضع رفع خبرا لمبتدأ محذوف ، وتقديره فشأنه أنه يضله ، أى : فشأنه الإضلال ، أو عطفا على " أن " الأولى ، أو تاكيدا أو بدلا ، أو يكون فى موضع رفع بالظرف عند بعض النحويين ، وتقديره فله نار جهنم[1] . ويرد كونها عطفا أو بدلا أو توكيدا أن " من تولاه " شرط ، والفاء جواب الشرط ، ولا يجوز العطف على " أن " الأولى إلا بعد تمامها ، لأن مابعدها من صلتها ، فإذا لم تتم بصلتها لم يجز العطف عليها ولا توكيدها ولا البدل منها ، لأنه لا يعطف على الموصول إلا بعد تمام صلته[2]. وأجاز سيبويه " كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله " بكسر الهمزة ، لأن الفاء جواب للشرط ، فسبيل ما بعدها أن يكون مبتدأ ، والإبتداء بـــ " أن " يكون مكسورا[3] .

---

(1) البيان : ٢ / ١٦٨ .
(2) مشكل مكى : ٢ / ٩١ .
(3) إعراب القرآن للنحاس : ٣ / ٨٦ .

ثالثا : عود الضمير على مصدر الفعل أو الوصف .

جاء فى القرآن كثيرا عود الضمير على المصدر الذى يدل عليه الفعل أو الوصف ، وقال أبو حيان : " دلالة الفعل على المصدر أقوى من دلالة اسم الفاعل ، ولذلك كثر إضمار المصدر لدلالة الفعل عليه فى القرآن وكلام العرب ، ولم تكثر دلالة اسم الفاعل على المصدر ...."[1] .

وهذه بعض النماذج :

١- قوله تعالى :(وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا) [2] فاعل (يزيدهم) ضمير يعود على المصدر المفهوم من الفعل قبله : (ونخوفهم) أى : فما يزيدهم التخويف[3] .

٢- قوله تعالى :(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)[4] أى : لا يزيد إنزال القرآن إلا خسارا ويجوز أن يكون الضمير راجعا إلى القرآن .

٣- قوله سبحانه :(وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)[5]

أى : ويزيدهم البكاء والخرور على الأذقان ، أو القرآن أو المنذر[6] .

---

[1] البحر المحيط : ٣ / ١٢٨ .
[2] الإسراء : ٦٠ .
[3] الإعراب المنسوب إلى الزجاج : ٨٤٥ ، والبيان : ٢ / ٩٤ .
[4] الإسراء : ٨٢ .
[5] الإسراء : ١٠٩ .
[6] الإعراب المنسوب إلى الزجاج : ٨٤٥ ، والجمل على الجلالين : ٢ / ٦٥٤ ، والعكبرى ١٢ / ٥٢ .

٤- قوله تعالى : (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [1]

يقرأ بالتاء والياء فى (يحسبن) فمن قرأ بالتاء فتقديره : لا تحسبن بخل الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، فحذف البخل وأقام المضاف إليه مقامه ، وهو " الذين " .

ومن قرأ بالياء : ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله البخل خيرا لهم وهى أقوى من الأولى ، لأن القراءة الأولى فيها إضمار للبخل قبل ذكره والقراءة بالياء فيها إضمار له بعد ذكره .

وقيل : على قراءة الياء ، يكون " الذين " فاعلا، وحذف المفعول الأول ، لدلالة الكلام عليه ، و" هو " فصل ، و" خيرا ". المفعول الثانى ، والتقدير : ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله البخل خيرا لهم - وعلى قراءة التاء فموضع " الذين " نصب ، لأنه مفعول أول بتقدير حذف مضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، وتقديره : ولا تحسبن بخل الذين يبخلون و " هو " فصل ، و " خيرا لهم " المفعول الثانى .

والعجب للنحاس الذى ينكر قراءة التاء قائلا : " فأما قراءة حمزة ... فبعيدة جدا ، وجوازها أن يكون التقدير : ولا تحسبن بخل الذين يبخلون مثل (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)[2] .. "[3]

---

[1] آل عمران : ١٨٠ .
[2] يوسف : ٨٢ .
[3] إعراب القرآن للنحاس : ١ / ٤٢٢ .

وأفضل من ذلك ما قاله " مكى " فى الموازنة بين القراءتين ، حيث يقول : " ... على أن فى هذه القراءة مزية على القراءة بالياء ، لأنك حذفت المفعول وأبقيت المضاف إليه يقوم مقامه ، وحذفت المفعول فى قراءة الياء ، ولم تبق ما يقوم مقامه ، وفى القراءة أيضا بالياء مزية على القراءة بالتاء ، وذلك أنك حذفت (البخل) بعد تقدم (يبخلون) .

وفى القراءة بالتاء حذفت (البخل) قبل إتيان (يبخلون) أو جعلت مافى صلة (الذين) يفسر ما قبل الصلة ، فالقراءتان متوازيتان فى القوة والضعف "[1].

٥- قوله تعالى :(أولئِكَ الذينَ هَدَى اللّهُ فبهُدَاهُمُ اقتَدِهْ قُلْ لا أسْألكُمْ عَلَيْهِ أجْرا إنْ هُوَ إلّا ذِكْرَى لِلْعَالمِينَ) [2]

قرئ بإثبات الهاء ساكنة ومكسورة ، وحذفها فمن أثبتها ساكنة جعل الهاء للسكت ، ودخلت بيانا للحركة وصيانة لها عن الحذف .ومن قرأ بكسر الهاء جعلها كناية عن المصدر ، أى : اقتد الإقتداء ، وقيل : إنه شبه هاء السكت بهاء الضمير فكسرها وهو ضعيف جدا[3] .

هذا ، والذى قرأ بكسر الهاء وصلتها ابن ذكران ، وقرأ هشام بكسرها من غير صلة ، وحمزة والكسائى يحذفانها فى الوصل خاصة ، وسواهما من السبعة يثبتونها ساكنة فى الحالين[4] . ولم يرتض أبو جعفر النحاس - كعادته - قراءة من قرأ بكسر الهاء حيث عقب قائلا : " وهذا لحن ، لأن الهاء

---

[1] مشكل مكى : ١ / ١٦٩ .
[2] الأنعام : ٩٠ .
[3] البيان : ١ / ٣٣٠ ، ومشكل مكى : ١ / ٢٧٦ .، والإتحاف : ٢١٣ ، والبحر : ٤ / ١٧٦ .
[4] ينظر تيسير الدانى : ١٠٥ .

لبيان الحركة فى الوقف ، وليست بهاء إضمار ..... ومن اجتنب اللحن واتبع السواد قرأ (فبهداهم اقتده قل لا أسألكم) فوقف ولم يصل ، لأنه إن وصل بالهاء لحن ، وإن حذفها خالف السواد ".[1]

٦- قوله تعالى :(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [2] .

قراءة الجمهور " ولكل " بالتنوين عوضا عن المضاف إليه أى : ولكل أهل دين من الأديان ، " وجهة " بالرفع مبتدأ مؤخر و" لكل " خبر مقدم ، " هو موليها " مبتدأ وخبر صفة لوجهة ، و "هو" يعود إلى " كل " والتقدير: لكل إنسان وجهة موليها وجهه . ويجوز أن يعود إلى الله تعالى ، أى : الله موليها إياهم ، والمفعول الثانى محذوف على كلا الوجهين[3] . ومن قرأ " هو مولاها "[4] - وهو ابن عامر- يكون " هو " راجعا إلى " كل " لا غير، ولا يجوز عوده إلى الله لإستحالة المعنى ، كما لا يقدر مفعول محذوف ، لأن أحد المفعولين صار مضمرا فى " مولاها " مرفوعا لأنه مفعول مالم يسم فاعله ، والثانى "ها" وهو راجع إلى " وجهة " لتقدم ذكرها ، ويجوز أن يكون راجعا إلى المصدر المفهوم من الفعل أى : مولى التولية وقرئ " ولكل وجهة " على الإضافة ، والمعنى : وكل وجهة الله موليها ، فزيدت الألام لتقدم

---

[1] إعراب القرآن للنحاس : ١ / ٨٢ ، ٨٣ .
[2] البقرة : ١٤٨ .
[3] البيان : ١ / ١٢٨ .
[4] الإتحاف : ١٥٠ .

المفعول كقولك : لزيد ضربت ولزيد أبوه ضاربه[1] .وزعم الفارسى أن الهاء كناية عن المصدر فى " موليها " أى مولى التولية ، ولا يكون " لكل وجهة " ، لأن الفعل إذا تعدى باللام إلى المفعول لا يتعدى بغير اللام ، ولا ما أنشده صاحب الكتاب .

هـــذا سراقـــة للقـــرآن يدرســـه

أى : يدرس الدرس ، ولا يكون للقرآن لما ذكرنا[2]

هـذا ، " والتولية فى هذا الموضع إقبال ، وفى " يولوكم الأدبار " [3] (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)[4] انصراف ، وهو كقولك فى الكلام : انصرف إلى اى : أقبل إلى ، وانصرف إلى اهلك ، اى : اذهب إلى أهلك[5]

٧. قوله تعالى : " فمن تطوع خيرا فهو خير له "[6]

" هو " يعود على المصدر المفهوم من الفعل " تطوع " أى فالتطوع أخير له أو الخير .

وقيل : يعود على الخير ، أى : الخير الذى تطوعه ، وجعل بعضهم الخير الأول مصدرا والثانى أفعل تفضيل وإرجاع الضمير إلى " من " أى : فالمتطوع خير من غيره لأجل التطوع[7]

---

(١) الكشاف : ١ / ١٠٣ .
(٢) إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج
(٣) آل عمران : ١١١
(٤) التوبة : ٢٥
(٥) معانى القرآن للفراء : ١ / ٨٥
(٦) البقرة : ١٨٤
(٧) الكشاف : ١ / ١١٣ ، والبحر : ٢ / ٣٨ ، والألوسى : ٢ / ٥٣

٨. قوله تعالى :(إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)[١] " هو " عائد على المصدر المفهوم من الفعل " تخفوها " ، أى : فالإخفاء خير لكم ، والمراد الصدقات المتطوع بها ، فإن الأفضل فى الفرائض ان يجاهربها ، وإنما كانت المجاهرة بالفرائض أفضل لنفى التهمة ، حتى إذا كان المزكى ممن لا يعرف باليسار - كان إخفاؤه أفضل ، والمتطوع إن أراد ان يقتدى به كان إظهاره أفضل[٢]

ولذا قالوا : إن الضمير فى " تخفوها " يعود للصدقات مطلقا ، أو يعود إليها لفظا لا معنى بناء على أن المراد بالصدقات المبداة المفروضة ، وبالمخفاة المتطوع بها ، فيكون من باب "عندى درهم ونصفه " أى نصف درهم آخر[٣]

٩. قوله تعالى :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [٤]

---

(١) البقرة : ٢٧١
(٢) الكشاف : ١ / ١٦٣ ، والبحر : ٢ / ٣٢٤
(٣) مضير الغائب : ١٤٥
(٤) البقرة : ٢٨٢

مفعول تفعلوا محذوف راجع إلى المصدر المفهوم من قوله " ولا يضار " أى وان تفعلوا المضارة أو الضرار - فإنه أى : الضرار : وقيل وإن تفعلوا شيئا مما نهيتهم عنه[1]

هذا ويجوز ان يكون الكاتب والشهيد فاعلين ليضار ، فيكون أصله / يضارر - بكسر الراء الأولى - وأن يكونا مفعولين لما لم يسم فاعله فيكون أصله يضارر بفتحها ، فادغمت الراء الأولى فى الثانية .... والأحسن أن يكونا فاعلين كقوله تعالى : " وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم " يخاطب الكتاب والشهود "[2]

والذى يقوى الاحتمالين قراءة عمر " ولا يضارر " بالإظهار والكسر وقراءة ابن عباس " ولا يضارر " بالاظهار والفتح [3]

١٠. قوله تعالى :(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)[4]

الضمير فى " جعله " يعود على المصدر المفهوم من " يمددكم " وهو الإمداد ويجوز أن يعود على التسويم أو على النصر أو على التنزيل أو على العدد ، أو على الوعد[5]

---

(١) الكشاف : ١ / ١٦٩ ، والبحر : ٢ / ٢٥٤

(٢) البيان : ١ / ١٨٣ ، ١٨٤

(٣) الكشاف : ١ / ١٦٩

(٤) آل عمران : ١٢٦

(٥) البحر : ٣ / ٥١ ، والبيان : ١ / ٢٢٠

رابعا : عود الضمير على غير مذكور مما يدل عليه المعنى :-

لحمل على المعنى وارد فى كثير من المواضع فى القرآن الكريم ، حتّى عقد له صاحب " إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج " بابا عنون له بقوله[1] هذا باب ما جاء فى التنزيل وقد حمل فيه اللفظ على المعنى وحكم عليه بما يحكم على معناه لا على اللفظ . ومن ذلك ما جاء فيه الضمير عائدا على غير مذكور فى الكلام لدلاله المعنى عليه . وذلك على ضربينى :

(أ) ما لا يحتمل إلا العود على غير مذكور ويشمل :-

١. قوله تعالى :(فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [2]

الهاءات فى " بدّله و سمعه ، يبدلونه " فيها وجهان :

أحدهما : إنما آتى بضمير المذكر دون ضمير المؤنث وإن كان الذى تقدم ذكر الوصية ، لأنه أراد بالوصية الإيصاء و الإيصاء مذكر فحمله على المعنى ، والحمل على المعنى كثير فى كلامهم .

والثانى : أن هذه الهاءات تعود على الكتب ، لأن " كتب " تدل عليه ، والكتب مذكر[3] .

وقيل : الهاء تعود على الحكم والفرض الذى أمر به الله وفرضه ، أو على ما أوصى به الميت ، على معنى الوصية وهو قول أو فعل ، أو لأن تانيث الوصية ليس بالحقيقى ، فيجوز أن يكنى عنها بكناية المذكر[4] .

---

(1) إعراب القرآن : ٦١٦

(2) البقرة : ١٨١ .

(3) البيان : ١ / ١٤٢ .

(4) التفسير الكبير : ٥ / ١٤ .

٢- قوله تعالى ثم قال : (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا)[١] حملا على الحظ والنصيب[٢] وقال مكى : " الهاء تعود على المقسوم، لأن القسمة دلت عليه"[٣].وكذا جعله الأنبارى من الحمل على المعنى[٤].

وقيل : يعود إلى المال والميراث وذكر على ذلك المعنى ، وقيل : عائد إلى " ما ترك الوالدان والأقربون ".

٣- قوله تعالى :(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) [٥] .

الضمير فى " لديهم " عائد على غير مذكور ، بل على ما دل عليه المعنى ، أى : ما كنت لدى المتنازعين كقوله : " فأثرن به نفعا " أى : بالمكان[٦] .

٤- قوله تعالى : (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) [٧]

---

(١) النساء : ٤ .
(٢) إعراب القرآن : ٦٢٣ .
(٣) مشكل مكى : ١ / ١٨١ .
(٤) البيان : ١ / ٢٤٤ .
(٥) آل عمران : ٤٤ .
(٦) البحر المحيط : ٢ / ٤٥٨ .
(٧) الأنعام : ٣١ .

قال الزمخشرى : " (فرطنا فيها) الضمير للحياة الدنيا ، جئ بضميرها ، وإن لم يجر لها ذكر ، لكونها معلومة ، أو للساعة على معنى : قصرنا فى شأنها وفى الإيمان بها ، كما تقول: فرطت فى فلان ومنه(فرطنا فى جنب الله)"[1]

وقيل : تعود على " ما " لأنه يريد بـ " ما " الأعمال كأنه قال : على الأعمال التى فرطنا فيها[2] .

وقيل : يعود على " الصفقة " المفهومة من ذكر الخسران الدال على المبايعة ، وقيل يعود على الجنة ، أى : على ما فرطنا فى طلبها .[3]

٥- قوله تعالى:(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)[4]

الضمير فى " عليها " يعود إلى الأرض ، حيث إن ذكر الدابة مع ذكر " على ظهرها " يدل على أن المراد ظهر الأرض - كما ذكر الرضى [5] - أو كما يقول أبو حيان : " عليها : أى على ظهر الأرض ، ودل على أنه الأرض قوله (من دابة) ، لأن الدبيب من الناس لا يكون إلا فى الأرض ، فهو كقوله (فأثرن به نقعا) أى بالمكان "[6] ومثله قوله سبحانه: " كل من عليها فان"[7] ومثله كذلك : " وإن ربك لهو العزيز الرحيم وإنه لتنزيل رب

---

(١) الكشاف : ٢ / ١١ .
(٢) البيان : ١ / ٣١٩ .
(٣) ضمير الغائب : ٢٤٨ .
(٤) النحل : ٦١ .
(٥) شرح الكافية : ٢ / ٥ .
(٦) البحر : ٥ / ٥٠٦ .
(٧) الرحمن : ٢٦ .

العالمين "[1] . حيث يعود الضمير فى " وأنه " للقرآن وان لم يجر له ذكر . وكذا قوله سبحانه : " وتراهم يعرضون عليها خاشعين "[2] فالضمير فى "عليها " للنار لدلالة العذاب عليها . وكذا قوله عز وجل : "كلا إذا بلغت التراقى"[3] وقوله سبحانه : " فلولا إذا بلغت الحلقوم "[4] . الضمير للنفس لدلالة ذكر التراقى والحلقوم عليها .

ب- كما يحتمل الضمير أن يعود على غير مذكور أو يعود على مذكور فيما يلى:-

١. قوله تعالى : " ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين "[5] . الضمير فى " فكفارته " يعود على " ما " إن كانت إسم موصول ، وإلا فعلى ما يفهم من المعنى ، وهو إسم الحنث ، وإن لم يجر له ذكر صريح ، لكن يقتضيه المعنى أى : فكفارة حنثه أو نكثه - كما قدره الزمخشرى[6] .

٢- (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)[7] .

للعلماء فى مفسر الضمير فى " فأسرها " أقوال منها : أنه أسر فى نفسه قوله : " أنتم شر مكانا " وقيل : أسر فى نفسه المجازاة لهم على ما قالوا فيه وقيل : أسر فى نفسه الحجة على ما قالوا ولم يرد أن يبين عذره فى

---

(١) الشعراء : ١٩١ ، ١٩٢ .
(٢) الشورى : ٤٥ .
(٣) القيامة : ٢٦ .
(٤) الواقعة : ٨٣ .
(٥) المائدة : ٨٩ .
(٦) الكشاف : ١ / ٣٦١ .
(٧) يوسف : ٧٧ .

ذلك ، وقيل : أسر فى نفسه قولهم " فقد سرق أخ له من قبل " ولم يرد أن يذيع هذا وينشره .[1]

قال الفراء : "وقوله : (فأسرها يوسف فى نفسه) أسر الكلمة . ولو قال (فأسره) ذهب إلى تذكير الكلام كان صوابا "[2] . واعتبره الزمخشرى إضمارا على شريطة التفسير، تفسيره (أنتم شر مكانا) ، وإنما أنث لأن قوله (أنتم شر مكانا) جملة أو كلمة على تسميتهم الكلام كلمة ، كأنه قيل : فأسر الجملة أو الكلمة التى هى قوله (أنتم شر مكانا) وفى قراءة ابن مسعود " فأسره " على التذكير، يريد القول أو الكلام[3] .

أما الضمير فى " ولم يبدها لهم " فيحتمل مرجعه ثلاثة أقوال :

أحدهما :أن يرجع إلى الكلمة التى بعدها وهى قوله تعالى "أنتم شر مكانا" .

الثانى : يرجع إلى الكلمة التى قالوها فى حقه وهى قولهم : " فقد سرق أخ له من قبل " ، فيكون المعنى : فأسر يوسف جواب الكلمة التى قالوها فى حقه ولم يجبهم عليها .

الثالث : يرجع إلى الحجة ، أى : فأسر يوسف الإحتجاج عليهم فى ادعائهم عليه السرقة ولم يبدها لهم[4].

---

(1) إعراب القرآن للنحاس : ٢ / ٣٤٠ .
(2) معانى القرآن : ٢ / ٥٢ .
(3) الكشاف : ٢ / ٢٦٩ .
(4) ضمير الغائب : ٣٤٦ .

٣- قوله تعالى: فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم "[١]

الضمير فى " أيها " راجع إما إلى المدينة ، ويكون الكلام على حذف مضاف، أى : أى أهلها ، على نحو " واسأل القرية "[٢] أو يكون راجعا إلى ما يفهم من سياق الكلام ، أى : أى المآكل .

والضمير فى " إنهم " راجع إلى الأهل المقدر فى " أيها "[٣] أو عائد على ما دل عليه المعنى من كفار تلك المدينة ، أو عائد على " أحد " لأن لفظه للعموم ، فيجوز أن يجمع الضمير كقوله:(فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)[٤]

٤- قوله تعالى : (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)[٥] الهاء فى قوله (ينصره الله) للنبى صلى الله عليه وسلم ، أى من كان منكم يظن أن الله لن ينصر محمدا بالغلبة حتى يظهر دين الله ، فليجعل فى سماء بيته حبلا ثم ليختنق به ، فذلك قوله (ثم ليقطع) اختناقا ، وفى قراءة عبد الله (ثم ليقطعه) يعنى السبب ، وهو الحبل[٦] .

---

(١) الكهف ١٩ ، ٢٠

(٢) يوسف : ٨٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس : ٢ / ٤٥٢ ،والكشاف : ٢ / ٣٨٤، والبحر المحيط :٦ / ١١١

(٤) الحاقة : ٤٧ .

(٥) الحج : ١٥ .

(٦) معانى القرآن للفراء : ٢ / ٢١٨ .

ويجوز أن يكون الضمير عائدا على " من " لأنه المذكور ، وحمل بعضهم النصر على الرزق ، وقيل يعود على الدين والإسلام .[1]

٥- قوله تعالى :(فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)[2].

فاعل " توارت " يعود إلى الشمس وإن لم يتقدم ذكرها ، ولكنها تفهم ضمن سياق الكلام ز وذكر العشى نقيضها ، والمعنى : حتى غابت الشمس ، وقيل الضمير للخيل ، والمعنى : توارت بالحجاب : أى دخلت اصطبلاتها ، أو توارت بحجاب الليل .

خامسا : إجراء الضمير مجرى إسم الإشارة .

يجرى الضمير مجرى إسم الإشارة فيكون مفردا ويرجع إلى مثنى أو متعدد ، فإن اسم الاشارة وإن كان مفردا فقد يشار به إلى مجموع من ذلك :

١. قوله عز وجل : (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) [3]

حيث أفرد الضمير فى " به " إجراء له مجرى اسم الاشارة كأنه قيل : " ألا كتب لهم بذلك "[4]

---

[1] البحر المحيط : ٦ / ٣٥٧ .
[2] ص : ٣٢ .
[3] التوبة : ١٢٠
[4] البحر المحيط : ٥ / ١١٣

٢. قوله سبحانه :(وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا)[١]

الضمير فى " إنه " عائد على " الأكل ، لقربه ، ويجوز أن يعود على التبديل أو عليهما ، كأنه قيل : إن ذلك كما قال :

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كان ذلك[٢] وقد روى عن أبى عبيدة قال : قلت لرؤية : إن أردت الخطوط فقل كأنها ، وإن أردت السواد والبلق فقل كأنهما. فقال أردتهما.

٣. قوله سبحانه :(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا)[٣]

قال الزمخشرى : " الضمير ف " منه " جار مجرى اسم الاشارة ، كأنه قيل : عن شئ من ذلك ، كما قال الله تعالى : " قل أؤنبئكم بخير من ذلكم " بعد ذكر الشهوات .... أو يرجع إلى ما هو فى معنى الصدقات وهو الصداق ، لأنك لو قلت : وآتوا النساء صداقهن لم تخل بالمعنى "[٤]

وهو نظير : " وأعتدت لهن متكأ " أى لكل واحدة ، ولذلك أفرد متكأ وقيل : يعود على المال الذى يدل عليه (صدقاتهن) ، وقيل يعود على الإيتاء ، وهو المصدر الذى يدل عليه (وآتوا)[٥]

---

(١) النساء : ٣

(٢) البحر المحيط

(٣) النساء : ٤

(٤) الكشاف : ١ / ٢٤٦

(٥) البحر المحيط : ٣ / ١٦٦

٤. قوله تعالى :(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[١]

قال الزمخشرى : " فإن قلت : لم وحد الراجع فى قوله • ليفتدوا به وقد ذكر شيئان ؟ قلت : هو نحو (فإنى وقيار بها لغريب) أو على إجراء الضمير مجرى اسم الاشارة ، كأنه قيل : ليفتدوا بذلك ، ويجوز أن يكون الواو فى (ومثله) بمعنى (مع) فيتوحد المرجوع إليه " .[٢]

وإنما يوحد الضمير ، لأن حكم ما قبل المفعول معه فى الخبر والحال وعود الضمير متأخرا حكمه متقدما ، تقول : الماء والخشبة أستوى كما تقول: الماء استوى والخشبة ، وقد أجاز الأخفش أن يعطى حكم المعطوف ، فتقول : الماء مع الخشبة استويا ، ومنع ذلك ابن كيسان - - إلا أن جعل الواو بمعنى "مع" فى هذه الآية ليس بشئ لذكر " معه " - كما يذكر أبو حيان .[٣]

٥- قوله تعالى :(وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)[٤]

الضمير فى " من ثمره " لله تعالى ، والمعنى ، ليأكلوا مما خلق الله من الثمر .. ويجوز أن يرجع إلى النخيل ، وتترك الأعناب غير مرجوع إليها ، لأنه علم أنها فى حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره ، ويجوز أن يراد من ثمر المذكور وهو الجنات .[٥]

---

(١) المائدة : ٣٦
(٢) الكشاف : ١ / ٣٣٦
(٣) البحر المحيط : ٣ / ٤٧٣
(٤) يس ٣٤ ، ٣٥
(٥) الكشاف : ٣ / ٢٨٦

ويجوز أن يعود على الماء لدلالة " العيون " عليه ، أو إلى التفجير الدال عليه " وفجرنا " ، لأنه أقرب مذكور ، ويراد بالثمر الفوائد ، كما يقال : ثمرة التجارة الربح ، ورجح الرازى هذا بأن فوائد التفجير أكثر من الثمار ، بل تشمل ما ورد فى قوله تعالى : " أنا صببنا الماء صبا " إلى أن قال : " فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقتبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا " [1]

سادسا : عود الضمير على أحد شيئين

يكون الضمير مفردا ، والمذكور قبله أكثر من شئ فيعود على أحدهما ، وذلك كثير ، منه ما يلى :

١ـ قوله تعالى :(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيما)[2]

الضمير فى " كن " يعود على أحد قسمى " الأولاد " ، لأنه لما كان لفظ الأولاد يشمل الذكور والاناث ، وقصد هنا بيان حكم الاناث أخلص الضمير للتأنيث ، إذ الاناث أحد قسمى ما يطلق عليه الأولاد ، فعاد الضمير على أحد القسمين ، وإذا كان الضمير قد عاد على جمع التكسير العاقل المذكر بالنون فى نحو : " ورب الشياطين ومن أضللن " كما يعود على الاناث ، فلان يعود على جمع التكسير العاقل الجامع للمذكر والمؤنث باعتبار أحد القسمين ، وهو المؤنث أولى .[3]

---

(١) نظر البحر المحيط : ٣٣٥/٧ ، والتفسير الكبير : ٢٦ / ٦٨

(٢) النساء : ١١

(٣) البحر المحيط : ١٨١١٣

ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأولاد مطلقا ، أو المولودات ، وإنما جاز أن يعود على الأولاد وهو ضمير مؤنث على نحو :

(فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها)[1] فإن الضمير فى بها " عائد على الجنود ، وهو جمع تكسير ، فيجوز أن يعود الضمير عليه كما يعود على الواحدة . كما قالت العرب : الرجال وأعضادها . وقرأ عبد الله " بهم " [2]

٢- قوله سبحانه :(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[3] قال الفراء : " ولم يقل : وقدرهما ، فإن شئت جعلت تقدير المنازل للقمر خاصة لأن به تعلم الشهور ، وإن شئت جعلت التقدير لهما جميعا ، فاكتفى بذكر أحدهما عن صاحبه كما قال الشاعر :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى برينا ومن جول الطوى رمانى [4]

وقيل : إنه يعود عليهما ، وإنما وحدا الضمير للإيجاز ، وإلا فهو فى معنى التثنية اكتفاء بالمعلوم ، لأن عدد السنين والحساب إنما يعرف بسير الشمس والقمر .

١- قوله سبحانه :(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [5] الضمير فى " جعلناه " يرجع إلى التنزيل .

---

[1] النمل : ٣٧

[2] البحر الميط : ٧٤/٧

[3] يونس : ٥

[4] معانى القرآن للفراء : ١ / ٤٥٨ ، والطوى : البئر . الجول : الجدار ، ويروى : من أجل الطوى . ينظر اللسان طوى

[5] الشورى : ٥٢

كما يقول الفراء [1] - وقال بعضهم أراد القرآن والايمان ، وجاز أن يقول : جعلناه لاثنين ، لأن الفعل فى كثرة أسمائه يضبطه الفعل ، ألا ترى أنك نقول : إقبالك وإدبارك يغمنى ، وهما إثنان فهذا من ذاك .

وقيل : يعود إلى " روحا " من قوله سبحانه : " وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا " أو إلى الكتاب أو الإيمان ، وهو أقرب مذكور .

"٤" قوله سبحانه :(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[2] . فاعل " لم يتسنه " ضمير الطعام والشراب ، لاحتياج كل واحد منهما للآخر فهما بمنزلة شئ واحد ، فلذلك أفرد الضمير فى الفعل ، أو جعل بمنزلة اسم الاشارة ، ، ويحتمل أن يكون الضمير للشراب ، لأنه أقرب ، وإذا لم يتغير الشراب فأن لا يتغير الطعام أولى ، ويؤيده قراءة عبد الله : " فانظرْ إلى طعامك وهذا شرابك لم يتسن " [3] ويجوز أن يكون أفرد فى موضع التثنيه كقوله :

فكأن فى العينين حب قرنفل أو سنبلا كحلت به فانهلت [4]

---

[1] معانى القرآن : ٢٧١٣
[2] البقرة : ٢٥٩
[3] الكشاف : ١ / ١٥٧
[4] دراسات لاسلوب القرآن : ٨ / ٦٦

٥- قوله عز وجل :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ)[١]

الضمير فى " عنه " : لرسول الله ﷺ - لأن المعنى : وأطيعوا رسول الله ، كقوله :(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ) [٢] " ولأن طاعة الله وطاعة الرسول شئ واحد :(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)[٣]

فكأن رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما ، كقولك : الاحسان والاجمال لا ينفع فى فلان ، ويجوز أن يرجع إلى الأمر بالطاعة ، أى : ولا تولوا عن هذا الأمر وامتثاله .

وقيل : يعود على الله سبحانه ، أو على الجهاد . ومثله قوله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)[٤] حيث وحد الضمير فى " دعاكم " ، لأن الاستجابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - كالاستجابة إلى الله ، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد .[٥]

ومثله – كذلك – قوله سبحانه : " يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه " حيث قال : " يرضوه " ولم يقل : ويرضوها

---

[١] الأنفال : ٢٠
[٢] التوبة : ٦٢
[٣] النساء : ٨٠
[٤] الأنفال : ٢٤
[٥] البحر المحيط : ٤ / ٤٨٠

لأن المعنى - والله أعلم - بمنزلة قولك : ما شاء الله وشئت ، إنما يقصد بالمشيئة قصد الثانى ، وقوله : (ما شاء الله) تعظيم لله مقدم قبل الأفاعيل ، كما تقول لعبدك : قد اعتقك الله وأعتقك ، وإن شئت أردت : يرضوهما ، فإكتفيت بواحد كقوله :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والقول مختلف

ولم يقل : راضون[1]

وقيل : " أحق " خبر " الرسول " وخبر الأول محذوف ، وهو أقوى ، إذ لا يلزم منه التفريق بين المبتدأ والخبر ، ولأنه الأقرب " وقيل : هو خبير عنهما ، لأن أمر الرسول تابع لأمر الله تعالى : [2]

وذهب المبرد إلى أن فى الكلام تقديما وتأخيرا ، وتقديره : والله أحق أن يرضوه ورسوله .

ومثله أيضا قوله سبحانه :(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ)[3] فإن معنى " إلى الله ورسوله " : إلى رسول الله كقولك : أعجبنى زيد وكرمه ، تريد كرم زيد[4]

سابعا : عود الضمير على المعنى حينما وعلى اللفظ حينما آخر :-

(أ) قد يعود الضمير على معنى اللفظ - كما سبقت الإشارة من نحو قوله تعالى :(فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[5] فإن ضمير " بدله " يعود على الوصية بمعنى الإيصاء ، نحو : جاءته كتابى[6] ومنه أيضا :-

---

[1] معانى القرآن للفراء : ١ / ٤٤٥

[2] العكبرى : ٩/٢

[3] النور ٤٨

[4] الكشاف : ٨٠/٣

[5] البقرة : ١٨١

[6] البحر المحيط : ٢ / ٢٢

١. قوله - عز وجل - (إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)[١]

فإن الضمير فى " اسمه " عائد على " كلمة " لأن المسمى بها مذكر ، أو على معنى يبشرك بمكون منه ، أو بموجود من الله ، والمعنى : إن الله فيبشرك بهذا الولد.[٢]

٢. قوله عز وجل -(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[٣] فإن " هو " عائد على المصيبة على المعنى لا على اللفظ [٤]

٣. قوله سبحانه : (بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ)[٥]

قرأ الأعمش : " يأتيهم فيبهتهم " على التذكير ، والضمير للوعد أو للحين .... أما على قراءة الجمهور فالضمير يرجع إلى النار أو إلى الوعد ، لأنه فى معنى النار ، وهو التى وعدوها ، أو على تأويل العدة أو الموعدة ، أو إلى الحين ، لأنه فى معنى الساعة ، أو إلى البغتة .[٦]

٤. قوله تعالى :(وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [٧]

---

(١) آل عمران : ٤٥
(٢) معانى القرآن للزجاج : ١ / ٤١٦
(٣) آل عمران : ١٦٥
(٤) البحر المحيط : ٣ / ١٠٧
(٥) الأنبياء : ٤٠
(٦) الكشاف : ٣ / ١٢
(٧) آل عمران : ٤٩

" الضمير فى " فيه " يعود على الكاف ، لأنها بمعنى مثل .[1]أو يعود على معنى الهيئة ، لأنها بمعنى المهيأ ، أو على الطير ، أو على مفعول " أخلق " المحذوف ، كأن المعنى - والله اعلم - أخلق شيئا كهيئة الطير ، فانفخ فى ذلك الشئ فيكون طيرا بإذن الله.[2]

٥. قوله تعالى :(وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)[3]

" من قبله " : من قبل الرسول .... الهاء لمحمد - صلى الله عليه وسلم ويقال : إن الهاء للتنزيل[4] وقيل : ذكر الضمير الراجع إلى " البينة " لأنها فى معنى البرهان والدليل .[5]

(ب) وكما يعود الضمير على معنى الفظ - كما رأينا فيما سبق من أمثله - يعود - كذلك - على اللفظ دون المعنى ، من ذلك :

١. قوله تعالى :(إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)[6]

الضمير المنصوب فى " تخفوها " يعود على " الصدقات " مطلقا ، أو يعود إليها لفظا لا معنى بناء على أن المراد بالصدقات المبداه : المفروضة ،

---

[1] الكشاف : ١ / ١٩٠
[2] البيحر المحيط : ٤٦٦/٢ والعكبرى : ١ / ٧٦
[3] طه : ١٣٣ ، ١٣٤
[4] معانى القرآن للفراء : ٢ / ١٩٧
[5] الكشاف : ٢ / ٤٥٣
[6] البقرة : ٢٧١

وبالمخفاة : المتطوع بها ، فيكون من باب " عندى درهم ونصفه " أى : نصف درهم آخر ، لأن قائل ذلك لا يريد : أن عنده درهما ونصف ذلك الدرهم الذى عنده ، وكذلك قول الشاعر :

كـــأن ثيـــاب راكبـــه بريـح خريق وهى ساكنة الهبوب

يريـد ريحا أخرى ساكنة الهبوب[1]

٢. قوله سبحانة(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)[2] الضمير المجرور فى " ويقدر له " يجوز أن يرجع إلى " من يشاء " فكأن بسط الرزق وقدره جعلا لواحد ، قال الزمخشرى : يحتمل الوجهين جميعا: أن يريد ويقدر لمن يشاء ، فوضع الضمير موضع "من يشاء" لأن من يشاء مبهم غير معين ، فكان الضمير مبهما مثله ، وأن يريد تعاقب الأمرين على واحد على حسب المصلحة .[3]

فعلى الإحتمال الأول يكون الضمير قد عاد على اللفظ دون المعنى والمراد : لمن يشاء آخر ، فصار نظير قوله سبحانه : " ما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره فإنه يريد آخر غير الأول ثم كنى عنه بالهاء - كما يقول الفـراء [4]

٣. قوله عز وجل :(يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)[5]

---

(١) البحر المحيط : ٢ / ٣٢٤

(٢) العنكبوت : ٦٢

(٣) الكشاف : ٣ / ١٩٥

(٤) معانى القرآن : ٢ / ٣٦٨ والآيه من سورة فاطر : ١١

(٥) النساء : ١٧٦

الضمير " هو " وفاعل " يرثها " عائد إلى ما تقدم لفظا دون معنى ، لأن الهالك لا يرث ، والحبة لاتورث.[1]

٤. قوله عز وجل : (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[2]

الضمير المجرور في " فيه " عائد على النهار ، عاد عليه لفظا " ، والمعنى : في يوم آخر . وقيل : على التوفى ، وقيل على الليل[3]

وزعم بعضهم أن منه قوله سبحانه :(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا)[4]

والحق أنه من عود الضمير على المعنى دون اللفظ ، يقول الزمخشري " فإن قلت : كان من حق الضمير أن يوحد ، كما تقول : ما جاءني من رجل ولا امرأة إلا كان من شأنه كذا ، قلت : نعم ، ولكنهما وقعا تحت النفي فعما كل مؤمن ومؤمنه ، فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ "[5]

ثامنا : حكم عود الضمير على جمع التكسير

إذا عاد الضمير على جمع تكسير لما لا يعقل ، فإنهم يفرقون فيه بين قليله وكثيره ، أي بين جمع القلة وجمع الكثرة ، فالأفصح في الأول أن يجمع الضمير ، والأفصح في الثاني أن يفرد مؤنثا ، ويجوز العكس ، من ذلك ما يلي :-

---

(١) البحر المحيط : ٣ / ٤٠٧

(٢) الأنعام : ٦٠

(٣) البحر المحيط : ٤ / ١٤٧

(٤) الاحزاب : ٣٦

(٥) الكشاف : ٣ / ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، والبحر المحيط : ٧ / ٢٣٤

١. قوله تعالى :(يَسْألونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاس وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[1]

الضمير فى كل من " ظهورها " و " أبوابها " يرجع إلى " البيوت " وعاد كضمير المؤنثة الواحدة ،؟ لأن البيوت جمع كثرة ، وجمع المؤنث الذى لا يعقل فرق فيه بين قليله وكثيره ..... أما جمع المؤنث الذى يعقل فلم تفرق العرب بين قليله وكثيره ، والأفصح أن يجمع الضمير ، ولذلك جاء فى القرآن(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاس لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) [2] ويجوز أن يعود كما يعود على المؤنث الواحد وهو فصيح.[3]

٢. قوله سبحانه : (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)[4]

---

[1] البقرة : ١٨٩
[2] البقرة : ١٨٧
[3] البحر المحيط : ٢ / ٦٤
[4] البقرة : ١٩٧

الضمير فى " فيهن " عائد على " الأشهر " ولم يقل : فيها ، لأن أشهر جمع قلة ، وهو جار على الكثير المستعمل أيضا . وقال قوم : هما سواء فى الاستعمال .[1]

ومثلة قوله عز وجل :(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)[2]

" فيهن " الضمير عائد على " الأثنى عشر " وقال قتادة والفراء : عائد على الأربعة الحرم ، نهى عن المظالم فيها ، تشريفا لها ، ويؤيده كونها أقرب مذكور ، وكون الضمير جاء بلفظ " فيهن " ولم يجئ بلفظ " فيها " كما جاء " منها أربعة حرم " ، لأنه قد تقرر فى علم العربية أن الهاء تكون لما زاد على العشرة ، وتعامل فى الضمير معاملة الواحدة المؤنثة فتقول: " الجذوع انكسرت ، وأن النون ، والهاء والنون للعشرة فمادونها إلى الثلاثة ، تقول : الأجذاع انكسرن ، هذا هو الصحيح ، وقد يعكس قليلا"[3]

وقال الفراء وقوله : " فيهن " ولم يقل : " فيها " وكذلك كلام العرب لما بين الثلاثة إلى العشرة ، تقول : لثلاث خلون ، وثلاثة أيام خلون إلى العشرة .

وإذا جزت العشرة قالوا : خلت ومضت ، ويقولون لما بين الثلاثة إلى العشرة : هن وهؤلاء ، فإذا جزت العشرة قالوا : هى وهذه . ويجوز فى كل واحد ما جاز فى صاحبه ... وكل صواب ، إلا أن المؤثر ما فسرت لك "[4]

---

(1) البحر المحيط : ٢ / ٨٧
(2) التوبة ٣٦
(3) البحر : ٥ / ٣٩
(4) معانى القرآن : ١ / ٤٣٥

٣. قوله عز من قائل : (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)[١]

أتى بضمير الإناث فى " فأبين " وما بعدها ، لأن جمع التكسير غير العاقل يجوز فيه ذلك وإن كان مذكرا[٢]

٤. قوله سبحانه : " (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ)[٣]

الضمير فى " بها " عائد على الجنود ، وهو جمع تكسير ، فيجوز أن يعود الضمير عليه كما يعود على الواحدة ، وذلك لأنه جمع كثرة .

٥. قوله سبحانه :(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [٤] قرئ[٥] : " ثم عرضها " وقرئ أيضا : " ثم عرضهن " فالقراءة الأولى جاءت على غير الأفصح ، والثانية جاءت على الأفصح .

٦. وقوله تعالى :(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)[٦]

قرا زيد بن على : " لم شهدتن "[٧] بضمير الإناث .

---

(١) الأحزاب : ٧٢
(٢) الجمل على الجلالين : ٣ / ٤٥٥
(٣) النمل ٢٧
(٤) البقرة : ٣١
(٥) البحر المحيط : ١ / ١٤٦
(٦) فصلت : ٢١
(٧) البحر : ٧ / ٤٩٣

تاسعا : استعمال ضميرى الجمع والتثنية للمفرد وعكسه .

كثيرا ما تتعارض الضمائر ، فيستعمل ضمير الجمع بدلا من ضمير المفرد مثلا سواء فى ذلك حال التكلم أو الخطاب ، وذلك رغبة فى التعظيم للمتكلم أو المخاطب .

فالمتكلم يتكلم بضمير الجمع حينما يكون ذا سلطان ونفوذ ، وكذلك يخاطب من يخاطبه بنفس الضمير لنفس الغرض.

وفى القرآن الكريم أمثلة كثيرة للصورة الأولى ، وذلك فى كلام الله سبحانه عن ذاته ، وأوضح أمثلة ذلك ورود " إن و ان " متصلين بضمير جماعة المتكلم ١١١ مرة فى حين وردتا متصلتين بضمير المتكلم المفرد ٢٧ مرة فقط ، واستعمال " نحن " ٣٣ مرة ، فى حين استعملت " أنا " ١٥ مرة ، وورود " كنا " ١٩ مرة ، وعدم ورود " كنت "[١]

كما تكررت " لدى " فى ٣ مواضع ، بينما تكررت " لدينا " فى ٦ مواضع ، و"لدنا" فى ٦ مواضع ، ولم ترد " ولدنى " ، " إلى " فى ٧ مواضع ، و"إلينا " فى ١٤ موضعا ، و " على " فى ٣ مواضع ، " وعلينا " فى ١٦ موضعا ، و " منى " فى ٤ مواضع ، و " منا " ١٨ موضعا " ، و " عندنا " فى ١٢ موضعا ولم ترد " عندى "[٢]

أما الصورة الثانية فقد ورد منها قوله تعالى :(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ)[٣]

---

(١) الضمائر فى اللغة العربية : ٢٠٣
(٢) المرجع السابق
(٣) المؤمنون : ٩٩

على أن هناك أغراضا أخرى لإستخدام ضمير الجمع بدل ضمير المفرد منها : التعبير عن الجماعة التى يمثلها واحد ، فيجوز أن يستعمل ضمير الجمع كل من لا يباشر العمل بنفسه [1] ، وكذا اظهار التأدب فى خطاب من ليس بينه وبين المتكلم ألفة أو من يعلوه فى المنزلة الإجتماعية ، ومنها إظهار التودد إلى شخص مألوف لدى المتكلم ، كما يحدث فى كثير من القصائد الغزلية ، كقول الحارث بن خالد المخزومى :

أظلـــوم إن مصابكـم رجـــلا أهـــدى الســـلام تحيـــة ظلـــم

هذا إلى جانب الابتعاد عن الأنانية أو مجرد التعود أو غيرها من الأغراض[2]

أما استعمال ضمير الإثنين للمفرد ، فهو مختص بالخطاب ، وهو خاص بلغة الشعر كقول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنـزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقد اشتهر هذا الأسلوب بين العرب من قديم حتى قال قائلهم :

فإن تزجرانى يا بن هفان أنزجـر وإن تدعانى أحم عرضا ممنعا[3]

وعليه جاء قوله تعالى مخاطبا مالكا خازن جنهم : (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)[4]

---

(1) البرهان للزركش : ٢ / ٢٣٦

(2) اللغة والمجتمع ١٦٤ ، وإعراب ثلاثين سورة : ٢٠٨ ، ٢٠٩

(3) شرح القصائد السبع الطوال : ١٦

(4) ق : ٢٤

أما عن استعمال ضمير الغائب مكان ضمير المتكلم أو المخاطب ، فقد حفلت به اللغة مما يسمى باسلوب الإلتفات من نحو قوله تعالى :(إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ)[1]

والذى يتتبع آيات الذكر الحكيم يجد أنماطا عديدة لتقارض الضمائر بصفة عامة ، وضمائر الغائب بصفة خاصة ، وهذه بعض النماذج.

(أ) استعمال ضمير الجمع للمثنى والعكس :-

١. قوله تعالى:(وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ)[2]

قال الفراء : " وفى بعض القراءة : (وكنا لحكمهما شاهدين ، وهو مثل قوله : " فإن كان له إخوة " يريد أخوين فما زاد . فهذا كقوله : " لحكمهم شاهدين " ، إذ جمع اثنين "[3] فضمير الجمع فى " لحكمهم " فيه وجهان :

أحدهما : يراد به المثنى ، ووقع الجمع موقع التثنية مجازا ، أو لأن التثنية جمع ، وأقل الجمع اثنان ، وهى من المسائل الخلافيه فى "الأصول" .

الثانى : أن يكون المصدر " حكم " مضافا إلى الحاكمين وهما داود وسليمان والمحكموم عليهم ، فيكون من إضافة المصدر إلى فاعله ومفعوله دفعه واحدة ، وهو جمع بين الحقيقة والمجاز ، لأن الحقيقة إضافته إلى فاعله ، والمجاز إضافته إلى مفعوله .[4]

---

(١) المؤمنون : ١١١ ، ١١٢

(٢) الأنبياء ٧٨

(٣) معانى القرآن : ٢ / ٢٠٨

(٤) البحر المحيط : ٦ / ٢٣١ والجمل على الجلالين : ٣ / ١٣٨ ، والبيان : ٢ / ١٦٣ ، والعكبرى : ٢ / ٧١ .

٢. قوله عز وجل :(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)[١]

قال الزمخشرى : " لما كان آدم وحواء - عليهما السلام - أصلى البشر ، والسببين اللذين منهما نشئوا وتفرعوا ، جعلا كأنهما البشر فى أنفسهما ، فخوطبا مخاطبتهم ، فقيل : " فإما يأتينكم منى هدى " على لفظ الجماعة "[٢]

٣. قوله تعالى :(أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ)[٣]

حيث أعاد الضمير جمعا ، لأن كل طائفة منهم جمع ، ومثله قوله سبحانه :(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)[٤] و(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ)[٥] ، ومثله كذلك قوله سبحانه :(إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)[٦] حيث قرئ " والله وليهم " ، فأعاد الضمير على المعنى لا على لفظ التثنية"[٧]

---

(١) طه ١٢٣

(٢) الكشاف : ٢ / ٤٥٠

(٣) الأعراف : ١٥٦

(٤) الحجرات : ٩

(٥) الحج : ١٩

(٦) آل عمران : ١٢٢

(٧) البحر المحيط : ٣ / ٤٧

٤. قوله عز وجل : " (فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ونادهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين)[1] " عليهما " أى : على عوراتهما ، كأنه قيل : يخصفان على سوأتهما ، وعاد بضمير الإثنين ، لأن الجمع يراد به الإثنان ، ولا يجوز أن يعود الضمير على آدم وحواء لأنه تقرر فى علم العربية أنه لا يتعدى فعل الظاهر والمضمر المتصل المنصوب لفظا أو محلا فى غير باب ظن وعدم وفق ووجد .[2]

(ب) استعمال ضمير الجمع للواحد والعكس .

كما يتقارض كل من ضميرى الجمع والتثنية - على نحو ما رأينا – يتقارض كذلك ضمير الجمع والواحد ، مثال ذلك :

١. قوله سبحانه (أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون)[3]

قال الأخفش : قال : كانتا لأنهما صنفان كما تقول العرب : هما لقاحان أسودان . وكما قال جل وعز :(إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا)[4] قال أبو إسحاق : كانتا ، لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد بسماء ، ولأن السموات كانت سماء واحدة ، وكذا الأرضون .[5]

---

(١) الأعراف : ٢٢

(٢) البحر المحيط : ٤ / ٢٨٠

(٣) الأنبياء : ٣٠

(٤) فاطر : ٤١

(٥) إعراب القرآن للنحاس : ٣ / ٦٩

ومنه قول الأسود بن يعفر :-

إن المنية والحتـــوف كلاهما يوفى المخارم يرقبان سوادى

بينما جعل السموات جمعا على الأصل فى قوله تعالى :(قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)[1]

فالضمير المنصوب فى " فطرهن " للسموات والأرض أو للتماثيل ، وكونه للتماثيل أدخل فى تضليلهم ، وأثبت للإحتجاج عليهم .[2]

أما قوله : " كانتا رتقا " فإنما لم يقل : رتقين ، لأنه مصدر ، والمعنى كانتا ذواتى رتق .

٢. قوله سبحانه : "(فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[3] جمع الضمير فى " لكم " و " فاعلموا " ، والذى قبلهما هو(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[4]

وذلك لأن المعنى - والله أعلم - فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين ، وقال فى موضع آخر : " فإن لم يستجيبوا لك فاعلم " ويجوز أن يكون الجمع لتعظيم الرسول ﷺ كقوله :" وإن شئت حرمت النساء سواكم "

أو يكون الكلام للمشركين ، والضمير فى " لم يستجيبوا " لـ " من استطعتم " . يعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه ، وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه ، فاعلموا أنما إنزل بعلم الله "[5]

---

(١) الأنبياء : ٥٦
(٢) الكشاف : ٣ / ١٤
(٣) هود : ١٤
(٤) هود : ١٣
(٥) الكشاف : ٢ / ٢١٠

٣. قوله عز وجل :(إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)[١]

وقوله سبحانه :(فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)[٢] قال البغدادى : " قد تخاطب المرآة بخطاب جمع الذكور ، أو يكنى عنها بضمير جمع المذكر مبالغه فى سترها .... وجاء مثل ذلك فى قول جميل :

إنى لأحفظ غيبكم ويسرنـــــى ∴ إذ تذكرين بصالح أن تذكـــرى
ياليتنـــى ألقـــى المنيـــة بغتـــة ∴ إن كـــان يوم لقائكم لم يقـــدر
أو أستطيع تجلـدا عـن ذكركـم ∴ فيفيـق بعض صباتى وتفكـــرى

وكثر ذلك فى شعر جميل ومجنون بنى عامر "[٣]

٤. قوله سبحانه : (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) [٤] الضمير فى " ردوا " يحتمل أن يعود على " أحدكم " على المعنى ، لأنه لا يريد به ظاهره من الإفراد ، إنما معناه الجمع ، وكأنه قيل : حتى إذا جاءكم الموت[٥]

---

(١) طه : ١٠
(٢) القصص : ٢٩
(٣) جزانة الأدب : ١ / ٣٩٦ ودراسات سلوب القرآن : ٨ / ٧٦
(٤) الأنعام : ٦١ ، ٦٢
(٥) البحر المحيط : ٤ / ١٤٩

٥. قوله عز من قائل :(وَإِنْ أَرَدتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا)[1]

لما كان قوله : " وإن أردتم استدال زوج مكان زوج " خطابا لجماعة ، كان متعلق الإستبدال أزواجا مكان أزواج واكتفى بالمفرد عن الجمع لدلالة جمع المستبدلين ، إذ لا يوهم اشتراك المخاطبين فى زوج واحدة ـ ولإرادة معنى الجمع عاد الضمير فى قوله " إحداهن " جمعا ، فدل لفظ " إحداهن " على أن الضمير فى " آتيتم " المراد منه كل واحد واحد ، كما دل لفظ " وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج " على أن المراد أزواج مكان أزواج . فأريد بالمفرد هنا الجمع لدلاله " وان أردتم " وأريد بقوله : " وآتيتم " كل واحد واحد ، بدلاله " إحداهن " وهى مفردة على ذلك .[2]

---

[1] النساء : ٢٠

[2] البحر : ٣ / ٢٠٦ ، والعكبرى : ١ / ٩٧

الخاتمة

بعد هذه الجولة السريعة حول " مرجع الضمير " وما يتعلق به من أحكام ، وبتطبيق تلك الأحكام على بعض آيات القرآن الكريم يتبين من خلال هذه الدراسة المقتضبة عظمة وإعجاز هذا الكتاب الكريم ، حيث جمع بين دفتيه أنماطا عديدة ، وصورا متنوعة لمرجع الضمير ومفسره ، كانت بحق أشمل وأرحب مما سجله النحاه فى كتبهم حول ذلك الموضوع .

من ذلك عود الضمير على غير مذكور مما يدل عليه المعنى ، وكذا إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة فيلزم الإفراد والتذكير ، وإن كان ما يعود عليه غير ذلك ، ومن ذلك أيضا عود الضمير على معنى اللفظ ، أو على اللفظ دون المعنى ، أو عوده على أحد القسمين .

ومنه أيضا ما يتعلق بضمير الجمع وحكم ذلك الجمع وبخاصة جمع التكسير لما لا يعقل ، حيث يفرق فيه بين قليله وكثيره فيرجح إفراده مع الكثير وجمعه مع القليل ، كما رأينا كيف يتبادل كل من ضميرى الجمع والتثنية فى الاستعمال ، كما يراد من الجمع الواحد وعكس ذلك .

هذا ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أنوه بعظيم فضل أستاذنا المغفور له فضيلة الشيخ / محمد عبد الخالق عضيمة ، وما قام به من جهد مضن فى كتابه الكبير " دراسات لأسلوب القرآن الكريم " ذلك الكتاب الذى يعد بحق النبراس الهادى لكل باحث ودارس فى مجال الدراسات اللغوية حول القرآن الكريم .

فقد أفدت منه كثيرا ، فجزاه الله عن العربية خير الجزاء .

أهم المصادر والمراجع

١. إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر للبناء طـ عبد الحميد حنفى - القاهرة .
٢. إرتشاف الضرب من لسان العرب لأبى حيان الأندلسى تحقيق د/ مصطفى النماس ، ط المدنى القاهرة ١٤٠٨ .
٣. إعراب ثلاثين سورة لابن خالوية ط دار الكتب المصرية - القاهرة .
٤. إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج تحقيق إبراهيم الإبيارى دار الكتب الإسلامية .
٥. إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس تحقيق زهير غازى ، عالم الكتب .
٦. أمالى الزجاجى تحقيق عبد السلام هارون ، المدنى القاهرة .
٧. الأمالى الشجرية لابن الشجرى ، ط حيدر آباد.
٨. إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات فى جميع القرآن للعكبرى ، طـ التقدم العلمية والمينمية .
٩. الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بها مش تفسير الكشاف للزمخشرى طـ دار الفكر بيروت .
١٠. الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - طـ التجارية القاهرة .
١١. أوضح المسالك إلى لفية ابن مالك لابن هشام نحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد طـ المكتبة العصرية بيروت .
١٢. البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى طـ دار الفكر .
١٣. البرهان فى علوم القرآن للزركشى طـ الحلبى القاهرة .
١٤. البيان فى غريب إعراب القرآن لأبى البركات الأنبارى تحقيق طه عبد الحميد طه ، طـ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة .
١٥. التفسير الكبير للفخر الرازى طـ دار الكتب .
١٦. حاشية الجمل على تفسير الجلالين للعلامة الجمل طـ الأزهرية .
١٧. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للشيخ عبد القادر البغدادى طـ الهيئة المصرية للكتاب القاهرة .

١٨. روح المعانى للعلامة الألوسى طـ . القاهرة .
١٩. شرح ألفية ابن مالك للأشمونى طـ عيسى الحلبى .
٢٠. شرح ابن يعيش على المفصل طـ الدمشقى القاهرة .
٢١. شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنبارى تحقيق عبد السلام هارون طـ المعارف القاهرة .
٢٢. شرح الكافية للرضى الاستراباذى . الاستانة .
٢٣. ضمير الشان والقصة فى القرآن الكريم د. السيد حسن البهوتى طـ الأمانة القاهرة .
٢٤. ضمير الغائب مستقصى فى القرآن الكريم د. على محمود النابى ، طـ دار الكتاب الحديث القاهرة .
٢٥. الضمائر فى اللغة العربية د. محمد عبدالله جبر طـ. دار المعارف .
٢٦. عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك ، محمد محيى الدين عبد الحميد ، بهامش أوضح المسالك .
٢٧. الكتاب لسيبوية تحقيق عبد السلام هارون طـ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة .
٢٨. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشرى دار الفكر بيروت.
٢٩. لسان العرب لابن منظور طـ دار المعارف القاهرة .
٣٠. اللغة والمجتمع د. محمود السعران ، دار المعارف القاهرة .
٣١. مجالس ثعلب طـ دار المعارف القاهرة .
٣٢. المحتسب لابن جنى طـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية القاهرة .
٣٣. مشكل إعراب القرآن لمكى بن أبى طالب تحقيق ياسين محمد السواس ، دار المأمون للتراث دمشق .
٣٤. معانى القرآن للفراء تحقيق عبد الفتاح شلبى الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٣٥. مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد القاهرة .
٣٦. النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى طـ دمشق .
٣٧. همع الهوامع للسيوطى - دار المعرفة بيروت لبنان .

محتويات البحث

- مقدمة .	٣٩١
- تمهيد فى تعريف الضمير .	٣٩٣
- مرجع الضمير .	٣٩٥
- مرجع ضمير الغائب فى القرآن الكريم .	٤٠٩
- أولا : عودة على أقرب مذكور .	٤١٠
- ثانيا : عودى على المحدث عنه .	٤١٧
- ثالثا : عود الضمير على مصدر الفعل أو الوصف .	٤٢٣
- رابعا : عود الضمير على غير مذكور مما يدل عليه المعنى.	٤٣٠
- خامسا : إجراء الضمير مجرى إسم الإشارة .	٤٣٦
- سادسا : عود الضمير على أحد شيئين .	٤٣٩
- سابعا : عود الضمير على المعنى وعلى اللفظ حيثما آخر .	٤٤٣
- ثامنا : عود الضمير على جمع التكسير .	٤٤٧
- تاسعا : استعمال ضميرى الجمع والتثنية للمفرد وعكسه .	٤٥١
- أهم المصادر والمراجع .	٤٦٠
- الفهرس .	٤٦٢